المكتبة الصوفية

ذو النون
إمام التصوف المصري فى عصره

تأليف
دكتورة / كوكب عامر
أستاذ بقسم الفلسفة
كلية البنات – جامعة عين شمس

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة

البريد الإلكتروني:
Alsakafa_aldinaya@hotmail.com
هاتف : 2025922620+

فاكس: 2025936277+

فهرست الهيئة المصرية العامة

لدار الكتب والوثائق القومية:

ذو النون

تأليف: كوكب عامر

1- المتصوفون المصرين

ا- ذو النون المصري، ثوبان بن ابراهيم الاخميمي المصري ، ابو الفيض

ب- العنوان

رقم الإيداع: 2019/8388

الترقيم الدولي:978-977-341-737-6

ذو النون

إمام التصوف المصري في عصره

تأليف

دكتورة/ كوكب عامر

أستاذ بقسم الفلسفة

كلية البنات – جامعة عين شمس

بسم الله الرحمن الرحيم

ذو النون
إمام التصوف المصري في عصره

تمهيد:

يُعَدُّ ذو النون المصري من أئمة التصوف الكبار في القرن الثالث الهجري وهذا يتضح بجلاء من كتب التراجم والطبقات[1] التي تناولت سيرته والتي تجمع على أنه

(١) التراجم التي كتبت عن ذو النون:

الكلباوي: المتوفى ٣٨٠ هـ / ٩٩١ م، التعرف لمذهب أهل التصوف تحقيق: د. عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، ص ٢٨، القاهرة، ١٩٦٠ م – أبو طالب المكي المتوفى سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٧ م. قوت القلوب: القاهرة، ١٢٥١ هـ / ١٩٣٢ م – عبد الرحمن السلمي المتوفى ٤١٢ هـ / ١٠٢٣ م، ص ٨، القاهرة، ١٩٤٥ م، القشيري المتوفى سنة ٤٦٥ هـ / ١١٧٦ م. الرسالة: تحقيق د. عبد الحليم محمود ومحمود الشريف، جـ ١، ص ٦٧ – الغزالي: المتوفى سنة ٥٠٥ هـ / ١١١١ م، إحياء علوم الدين، جـ ٤، جاء به أقوال متفرقة في مذهب ذو النون الصوفي، تحقيق د. بدوي طبانه، القاهرة، ١٣٣٤ هـ - محيي الدين بن عربي المتوفى ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م – الكوكب الدري في مناقب ذي النوي المصري: مخطوط بسراي أحمد الثالث، ١٣٧٨ هـ، ١٩٥ ورقة توجد منه نسخة مصورة بمعهد المخطوطات – القاهرة تحمل رقم ٤٢١ تاريخ – وقد قمت بتصويره والاحتفاظ به وقد جاء به تفصيلات عن سيرة ذي النون ومذهبه الصوفي ومكامنه في عصره – أبو بكر السيوطي المتوفى ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م – السر المكنون في مناقب ذي النون مخطوط مكون من ٩٦ ورقة – مكتبة باريس ٢٠٤٣ بعنوان المكنون في مناقب ذي النون – فجد (٤٤٤١) – كشتربيتي (٤٨٦٥) ضمن مجموعة الأوراق من ١: ٧٨، نسخ عام ١١١٤ هـ - لم استطيع الحصول عليه نظرا لوجوده في

كان صوفيًا كاملاً متمتعًا بمكانة مرموقة بين معاصريه من العلماء والصوفية في العالم الإسلامي عامة وفي مصر خاصة. فقد كان له دوره الرائد في إرساء أسس التصوف السني النظري، وتوضيح معالم الطريق إلى الله ورسم معالمه وآدابه. فله حديث طريف عن النفس الإنسانية ومجاهداتها عن طريق الرياضات العملية كالذكر والسماع والعزلة والخلوة والحج والصمت وغيرها.

=

مكتبات خارج القطر – قصة العباس بن حمزة النيسابوري: المتوفى ٢٨٨ هـ / ٩٠٠م مع ذي النون المصري، قد أملاه ذو النون على العباس بن حمزة ويرويه أبي بكر أحمد بن الحسن البيهقي المتوفى ٤٥٨ هـ / ١٠٦٥ م توجد منه نسخة بمكتبة ليبزج بألمانيا الشرقية تحمل رقم ٧٨٥ / ٤ (من ٥٩ ب – ٧١ ب) ولم يتيسر لي الاطلاع عليه نظرا لعدم إمكانية تصويرها لوجودها خارج القطر – مقام ذي النون بين الملوك في كتاب (مكارم الأخلاق) مجهول المؤلف يوجد بمكتبة البنغال مخطوط في خمس ورقات. ولم أتمكن من الاطلاع عليه. عبد الوهاب الشعراني المتوفى في ٩٧٣هـ / ١٥٦٥ م – الطبقات الكبرى: جـ١، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، القاهرة، ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م – عبد الرؤوف المناوي: الكواكب الدرية في مناقب السادة الصوفية، ص ٢٣٢، القاهرة، سنة ١٩٣٨ – الزركلي: الأعلام، ص ٨٨، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م – ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ص ١٧، مكتبة القدس، القاهرة، سنة ١٣٥٠ م – إسماعيل البغدادي: هدية العارفين، ص ٢٤٩، إسطنبول، سنة ١٩٥١ م – ابن النديم: الفرست، ص ٥١٧ – أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء، جـ ٩، عشرة صفحات متفرقة – ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ ١، ص ١٢٦ – البستاني: دائرة المعارف، جـ ٨، ص١٤٥، بيروت – الخطيب: تاريخ بغداد، جـ ٨، ص ٣٩٣ – التهذيب: لابن عساكر، جـ ٤، ص ٢٧١ – القفطي: تاريخ الحكماء، ص ١٨٥ – ابن حجر: لسان الميزان، جـ ٢، ص ١٠٧ – اليافعي: مرآة الجنان، جـ ٢، ص ١٣٩ – فؤاد سركين: تاريخ التراث العربي، جـ ٢، ص ٤٤٤، نقلة إلى العربية د. فهمي أبو الفضل ود. محمد حجازي – الهجويري: كشف المحجوب، ترجمة نيكلسون، ص ١٠٠ – جلال الدين الرومي المثنوي: ترجمة س. أ ولسون، جـ ص، ص ١٢١ – ١٢٨ لندن ١٩١٠.

Carl Berockelmen: Gestchichte Der Arabischen Litterature, I. ٣٥٣.

Louis Massiqnon: Essai sur les origins de lexique technique de la mystique musulmane, Paris, ١٩٢٢.

نيكلسون: الصوفية في الإسلام، القاهرة، ١٣٧١ هـ / ١٩٥١ م، ترجمة نور الدين شريبه، نيكلسون في التصوف الإسلامي وتاريخه، ص ٣٩، القاهرة، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩ م.

والرياضيات الروحية والتحقق بمقامات السلوك الصوفي كالتوبة والصدق والإخلاص والرضا والمحاسبة والمراقبة، والزهد واليقين، والخوف والرجاء وغيرها من المقامات والأحوال كالأنس والفناء وغيرها، والتي كان له السبق في تناولها بالتحليل والتفصيل مبينًا أن المتحقق بها تصفو نفسه وتتطهر سريرته وتسمو أخلاقه ويتهيأ قلبه لتلقي المعرفة الذوقية الشهودية.

ولا ريب أن القارئ لمذهب ذي النون الصوفي يستطيع أن يلمس بوضوح الجهد الذي ساهم به في جعل التصوف الإسلامي مذهبًا تربويًا يهدف إلى تهذيب النفس الإنسانية وتربيتها تربية دينية معمقة لتزكية جانب الخير فيها وتطويع النفس الأمارة بالسوء للنفس المطمئنة حتى يغلب فيها الخير وتتبدل صفاتها الذميمة بصفات حميدة وحتى تتهذب أخلاقه وترق مشاعره ويصفو قلبه وتطمئن نفسه ويتأدب بآداب الشرع ويصير صوفيًا كاملاً متحققًا بالكمال الأخلاقي متقربًا إلى الله محبًا له مطيعًا لأوامره شاكرًا نعمه راضيًا بقضائه مخلصًا في عبادته. متوكلاً عليه، ذاكرًا له متوجهًا إليه وحده زاهدًا فيما سواه متهيئًا للاتصال الروحي به والمثول في حضرته متلقي المعارف التي يفيضها على قلبه من لدنه تعالى دون واسطة من حس أو عقل.

وقد أوضح ذو النون طريقين للمعرفة بالله التي أفاض الحديث عنها مبينًا مناهجها وأدواتها ودرجاتها وطرق المجاهدة والرياضات التي يأخذ بها الصوفي نفسه حتى تضعف بشريته وتقوى روحانيته ويسير أهلاً لتقبل المعرفة الذوقية عن الله وهذا الطريق يكون عن تعمد وإرادة من السالكين.

أما الطريق الثاني فهو طريق المجتبين أو المجذوبين الذي يصطفيهم ربهم ويكشف لهم عن وجوده ابتداءً فيطلعهم على معرفته تعالى دون تعمد منهم ولا اجتهاد ثم بعد أن يتحققوا بمعرفة الله تعالى يأخذون أنفسهم بالمجاهدات والرياضات لتهذيبها ليكونوا أهلاً لتلك المعرفة، وهذا ما سيأتي الحديث عنه تفصيلاً في تناولنا للمعرفة عند شيخنا المصري.

والدارس لمذهب ذي النون الصوفي ونظريته إلى المعرفة والمحبة والزهد يتبين أنه أضاف الكثير إلى أقوال زهاد القرنين الأوليين للهجرة كالحسن البصري المتوفى سنة (١١٠ هـ / ٧٢٨ م) ورابعة العدوية سلطانة العشق الإلهي المتوفاة سنة (١٨٥ هـ/٨٠١ م) ومعروف الكرخي المتوفى سنة (٢٠٠ هـ / ٨١٥ م) وغيرهم من الزهاد الأوائل الذين وردت أقوالهم في كتب الطبقات الصوفية كالرسالة القشيرية واللمع للطوسي وغيرها. وكانت رابعة العدوية قد مهدت طريق المحبة بما تغنت به في مذهبها في الحب الإلهي شعرًا ونثرًا مما أفاد منه من جاء بعدها تأثر به ذو النون وغيره من الصوفية.

ويقول نيكلسون[١] والمرحوم الدكتور محمد مصطفى حلمي[٢]: أنه ظهر عند ذي النون خصائص التيوزوفية[٣] للتصوف في صورتها الأولى.

أما فؤاد سزكين فيقول: يقوم اتجاهه الأساسي في التصوف على الغنوصية[٤] Gnosticism ولكنه ظل في إطار أهل السنة، وأنه تعرض بسبب آرائه الصوفية لهجوم المالكية وهجوم المؤرخ عبد الله بن عبد الحكم كما هاجمته المعتزلة لقوله بقدم القرآن[٥].

---

(١) نيكلسون: في التصوف الإسلامي وتاريخه، ص ٣٩.

(٢) د. محمد مصطفى حلمي: الحياة الروحية في الإسلم، ص ١٠٤.

(٣) التصوف التيوزوفي هو التصوف الإشراقي الذي يدور المذهب الرئيسي فيه على اتحاد العبد بالرب.

(٤) الغنوص Gnosis في أساسه معرفة أشياء دينية تسمو على مستوى عامة المؤمنين أو على مستوى العقيدة الرسمية والغنوصية مذهب تلفيقي يجمع بين الفلسفة والدين ويقوم على أساس فكرة الصدار ومزج المعارف الإنسانية بعضها ببعض ويشمل على طائفة المضمون بها على غير أهلها وفي تلتقي الأفكار القبلية بالأفلاطونية الحديثة وبعض التعاليم الشرقية كالمزدكية والمانوية، وكان له أثره في التفكير الفلسفي في المسيحية والإسلام.

انظر: د. إبراهيم مدكور، المعجم الفلسفي، ص ١٣٣.

فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي، جـ ٢، ص ٤٤٤.

(٥) الرسالة القشيرية: جـ، ص ٦٠٤.

وقد يكون ما حملهم على هذا القول ما جاء على لسان ذي النون من عبارات قليلة استطاعوا أن يستشفوا منها ذلك مثل قوله: "معاشرة العارف كمعاشرة الله تعالى يحتملك ويحلم عنك تخلقًا بأخلاق الله"[١]. ففي هذه العبارة يذهب ذو النون إلى أن العارف بالله حسن العشرة لأنه يتخلق بأخلاق الله ولذا فهو يتشبه به تعالى في تحمله وصبره على الناس والصفح عنهم على قدر إمكانه، وصوفينا يعرف تمامًا أن القياس بين العارف والله تعالى مع الفارق الشديد، فالله سبحانه وتعالى لا شبيه لا ولا مثيل، غير أن تلك العبارات التي لا يجب على من يسمعها أخذها على ظاهرها، اعتبرها من كتبوا عن ذي النون صورة أولى للتصوف التيوزوفي الذي ظهر بوضوح لدى البسطامي المتوفى سنة (٢٦٠ هـ / ٨٧٥ م) والذي كان معاصرًا لذي النون وكان على صلة به. وهو صاحب نظرية الفناء التي أدت إلى القول بنظرية الاتحاد.

ولما كان صوفينا أول من تكلم علانية في التعاليم الصوفية[٢] كما كان أول من فسر إشارات الصوفية وتكلم في الطريق[٣] وقال عنه أبو المحاسن[٤]: أنه أول من تكلم في مصر في الأحوال ومقامات أهل الولاية. وكان أهل مصر في زمانهم لم يكن لهم بمثل ما اشتغل به من علوم الصوفية سابق عهد أو كانوا – على حد تعبير المرحوم الدكتور مصطفى حلمي – على أقل تقدير عند أول عهدهم بمثله، الأمر الذي ترتب عليه أن ثاروا عليه ونسبوه إلى الزندقة.

ويذكر السيوطي أن أهل مصر قد أنكروا على ذي النون وقالوا: أنه أحدث علمًا لم تتكلم فيه الصحابة، هذا بالإضافة إلى أن بعض فقهاء مصر في ذلك الوقت، وأهل

---

(١) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، مخطوط بمعهد المخطوطات يحمل رقم ٤٢١ بتاريخ ل ٤١.

(٢) المذكور في كتاب نفحات الأنس وفي الكتاب الثاني من مثنوي جلال الدين الرومي قصة طويلة تشير إلى الشكوك التي ولدها مذهب ذي النون وكيف ينظر إليه على أنه مجنن.

(٣) نفحات الأنس: ص ٢٦ وما بعدها – دائرة المعارف الإسلامية، جـ ٤، ص ٤١٩، مقالة د. محمد مصطفى حلمي عن ذي النون.

(٤) النجوم الزاهرة: جـ ١، ص ٧٥٣.

الحديث بصفة عامة وفقهاء أخميم بلدته بصفة خاصة قد تعصبوا ضده[١]. وكان ذو النون على خلاف معهم بسبب هجومه عليهم فهو يرى أن أهل الفقه والحديث لولا أن دخل عليهم نقص لكانوا أفضل الناس وهذا النقص الذي أشار إليه يتمثل في أنه يرى أن هؤلاء العلماء يخضعون للمخلوقين دون الخالق ويدعون أنهم أعلى درجة من جميع الخلائق[٢].

وربما يرجع تعصب أهل الفقه والحديث ضد شيخنا إلى غيرتهم منه ومن مكانته العلمية بين علماء عصره مما جعلهم ينسبون إليه الكفر والزندقة مثل أبو اليزيد البسطامي (المتوفى سنة ٢٦١ هـ / ٨٧٢ م) وابن الفارض (المتوفى سنة ٦٣٢ هـ/٨٤٣ م) ومحيي الدين بن عربي (المتوفى سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م) وغيرهم. فهو في عداد الصوفية الملتزمين بالكتاب والسنة وهذا ما سيتضح لنا بجلاء عند عرض مذهبه الصوفي فهو يحرص دائمًا على تأكيد صورة الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله، وقد شهد له الخليفة المتوكل العباسي بذلك عندما التقى به ببغداد.

والحقيقة أن الالتزام بالكتاب والسنة هي سمة التصوف المصري على مر التاريخ الإسلامي وقد كان لمذهب ذي النون الصوفي تأثير واضح فيمن عاصره من الصوفية وفيمن جاء بعده منهم. فقد تأثر به سهل بن عبد الله التستري (المتوفى سنة ٢٨٣ هـ / ٨٩٤ م) وأبو تراب النخشي (المتوفى ٢٤٥ هـ / ٨٥٦ م) وأبو عبد الله بن الجلاء الذي كان من أكابر مشايخ الشام وصحبه وهو بغدادي الأصل... وأبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز (المتوفى عام ٢٧٧ هـ / ٨٨٨ م) وهو من أصحاب ذي النون أيضًا إسحاق بن إبراهيم السرخسي (المتوفى ٢٩١ هـ / ٨٠٢ م) والذي روى بعض أقوال ذي النون وأبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازي (المتوفى ٣٠٤ هـ / ٩١٥ م) وقد صحب ذا النون

---

(١) يذكر د. مصطفى حلمي في دائرة المعارف، جـ ٤، ص ٤١٩، أن فقهاء أخميم ركبوا مركبا ذاهبين إلى سلطان مصر ليشهدوا بكفر ذي النون فانقلب بهم الزورق والناس ينظرون.

انظر أيضًا: المناوي، الكواكب الدرية، جـ ١، ص ٢٢٣.

(٢) الشعراني: الطبقات الكبرى، جـ ١، ص ٧٩.

وكذلك كان لأصحاب ذي النون أيضًا تأثيرًا عليه في حياته وفي مذهبه[١]. كما يظهر تأثير ذي النون لدى الجنيد البغدادي (المتوفى سنة ٢٩٧ هـ / ٣٠٨م) والغزالي (المتوفى ٥٠٥ هـ / ١١١١ م) وغيرهم من الصوفية اللاحقين عليه ويقول السلمي: أن الكل أخذ عنه وتأثر به.

(١) انظر: وفيات الأعيان: لابن خليكان، جـ ١، ص ٢٨١.

سيرته ومصنفاته

١ - اسمه:

جاء بكتب التراجم أن اسمه ثوبان بن إبراهيم[١]. وقيل: الفيض بن أحمد[٢].

٢ - لقبه:

يُلقب بذي النون* المصري[٣]، وقيل: إنه سُمّي ذو النون لأنه أخرج طفل كان تمساحًا في النيل كان قد ابتلعه فلما رأى فزع أمه عليه طلب من النيل إخراج التمساح وشق بطنه وأخرج الطفل سليمًا، فسُمّي بذي النون تشبهًا بسيدنا يونس عليه السلام، الذي سُمّي بذي النون لقصته المعروفة مع الحوت، فقد كان لصوفينا قصة مع التمساح تشبه قصة يونس مع الحوت.

٣ - كنيته:

يُكنى أبو الفيض.

٤ - تاريخ مولده:

تكرم أستاذنا الدكتور المرحوم محمد مصطفى حلمي في تعليقه على مادة ذي النون بدائرة المعارف الإسلامية[٤] وأشار إلى أنه لا يكاد يذكر أحد من المؤرخين والمترجمين شيئًا عن التاريخ الذي كان فيه مولد ذلك الصوفي. كما ذكر أن السيوطي

---

(١) انظر: كتب التراجم السابقة، ص ١ – ٢ من هذا البحث.

(٢) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، ورقة رقم ٤.

* هناك من يطلق عليه اسم ذو النون مثل إسماعيل بن الظافر بن عبد الرحمن بن ذي النون وهو من قبائل هواره ورأس سلفه من الدولة المارونية وكانت رياسته في شنترية ثم تغلب على حسن افلنتين ارمان، فتنة الأموية هناك سنة ٤٠٩ هـ.

انظر: دائرة المعارف للبستاني، جـ ٨، ص ١٤٥.

(٣) انظر: كتب التراجم السابقة.

(٤) د. محمد مصطفى حلمي: تعليق على مادة ذي النون – دائرة المعارف الإسلامية، جـ ٤، ص ٤١١.

في ترجمته لحياة ذي النون ذكر أن عمره قد قارب التسعين[١]، واستطاع أن يستخلص من معرفة تاريخ وفاته ٢٤٥ هـ أنه ولد حوالي سنة ١٥٥ هـ[٢] غير أني وقعت على تاريخ مولده مذكورًا في " تاريخ التراث العربي " لفؤاد سزكين الذي قال أنه ولد سنة (١٨٠ هـ / ٧٩٧ م)[٣].

٥ - بيئته الخاصة:

وُلِدَ ذي النون من أبوين نوبيين في قرية أخميم في صعيد مصر، وكان أبوه مولى لإسحاق بن محمد الأنصاري القرشي، وله ثلاثة أخوة ذكور هم: ذو الكفل، وعبد الباري، وعبد الخالق، وكان ذو النون نحيفًا تعلوه حمرة، وكانت له لحية ليست بيضاء الشعر، أولع منذ صغره بطلب العلم وحفظ القرآن كما درس الفقه والحديث والفلسفة والكيمياء القديمة والطب، وكان ذو النون شاعرًا ومحدثًا وكان شقران العابد أستاذًا له وشيخه في الطريق، كما كان أستاذًا آخرًا يدعي إسرافيل، وقد ذكر ذلك السراجي الطوسي في كتابه "اللمع"، وله أستاذة تُدعى فاطمة النيابورية سيأتي الحديث عنها بعد.

وقد ألم ذو النون بكل أنواع العلوم والمعرفة التي سادت في عصره، وجاء في دائرة المعارف أنه كان صالحًا زاهدًا عابدًا ومن أولياء الله المشهورين وأحد أصحاب الطرق وأكملها في زمانه وكان متفردًا في العلم والورع والأدب والحكمة والفصاحة وكان صاحب كرامات.

وكان ذو النون مولعًا بالأولياء والمشايخ وكانت لهم بهم صلات قوية، ومن أصحابه محمد بن على الحافظ الصوفي والذي التقى به في الإسكندرية وأبو عبد الله بن الجلاء الذي قال عن ذي النون: " لقيت ستمائة شيخ ما لقيت فيهم مثل أربعة: ذو

---

(١) المرجع السابق: جـ ٤، ص ٤١١.

(٢) المرجع السابق: ص ٤١٢. وانظر: السيوطي، حسن المحاضرة، جـ ١، ص ١٢٨.

(٣) ذكر هذا التاريخ أيضًا د. أسامة كامل حسن في رسالته عن ذي النون المصري وتصوفه، ص ٢، رسالة ماجستير تحت إشراف الدكتور أبو الفا التفتازاني.

النون، وأبي تراب النخشي وأبي عبيد اليسري وأبي (أي والده)[١]. ومن أصحابه أيضًا يوسف بن الحسن شيخ الري الخراز وأبي سعيد الخراز من أهل بغداد (المتوفى سنة ٢٧٧ هـ / ٨٨٨ م) ومحمد بن سهل التستري (المتوفى سنة ٢٤٥هـ/٨٥٦م) وغيرهم.

وقد ترك ذي النون قريته إلى القاهرة التي تشير إليها كتب التراجم باسم (مصر) وكانت تسمى (الفسطاط) وقد روى عبد الرؤوف المناوي سبب تركه لقريته في "الكواكب الدرية " قائلا: " إن ذا النون سمع ذات يوم من أيام إقامته بأخميم صوت لهم ودفاف. فقال: ما هذا؟ قيل: عرس. ثم سمع بجانبه بكاء وصياحا. فقال: ما هذا؟ قيل فلان مات. قال أعطى هؤلاء فما شكروا وابتلى هؤلاء فما صبروا. الله على إن بيت المال بهذا البلد فخرج فورا إلى مصر فقطنها[٢].

وهذا التصرف منه يدل دلالة واضحة على أنه كان إنسانا متزنا متدينا في شبابه بحكم نشأته في بيت صالح وبيئة إسلامية. غير أنه لم يكن متجها لسلوك طريق الصوفية حتى أن اجتباه الله وأطلعه على معرفته سبحانه معرفة قلبية ذوقية. فكان ذلك دافعا قويا له لسلوك طريق القوم. فبدأ بالتوبة وجاهد نفسه حتى صار صوفيًا كاملاً، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾[٣]؛ فالطريق الصوفي إما أن يبدأ بمجاهدة النفس والتحقق بالرياضات الروحية واصطناع الرياضات العملية حتى تسمو النفس ويصفى القلب ويتحقق السالك بالكمال الأخلاقي ويصل إلى التحقق بالمعرفة الذوقية القلبية. وهذا هو الطريق الصاعد. وأما أن يبدأ بالمعرفة فيجذبه الله ويطلعه على معرفة ذاته العلية من لدنه تعالى دون تعمد منه أو اكتساب أو اجتهاد ثم بعد ذلك يسلك

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية: جـ ٤، ص ١١٤، مقالة للدكتور مصطفى حلمي عن ذي النون.

(٢) المرجع السابق: جـ ١، ص ٢٢٣.

(٣) سورة الشورى: الآية ١٣.

طريق المجاهدة ويغير من سلوكه ويتحقق بالمقامات والأحوال الصوفية. وهذا هو الطريق الهابط[١].

ويروى شيخنا قصة توبته قائلاً: " خرجت من مصر إلى بعض القرى فنمت في الطريق، ثم انتبهت وفتحت عيني فإذا أنا بقنبرة (أي طائر) عمياء سقطت من شجرة على الأرض فانشقت الأرض فخرج منها سكرجتان إحداهما من ذهب والأخرى من فضة، وفي إحداهما سمسم وبالأخرى ماء فأكلت من هذه وشربت من هذه فقلت حسبي !! تبت. ولزمت الباب إلى أن قبلني"[٢].

فبعد أن رأى ذي النون بعيني رأسه هذا المشهد الذي اطلعه عليه الله كي يجتبيه عرف ربه حق المعرفة وتحقق باليقين الكامل وامتلئ قلبه بنور المعرفة الذوقية اليقينية. وبذلك يكون قد سلك الطريق الهابط الذي يبدأ بالمعرفة الإلهية ثم ينتهي بالمجاهدة ومنذ تلك اللحظة صار ذو النون في الطريق الصوفي وسلكه كما سبق أن ذكرنا على يد شيخه شقران العابد ويقول ذو النون: " كنت شابا صاحب لهو ولعب ثم أني تبت وتركت ذلك كله"[٣]. وهو يعني باللهو واللعب قياسا على حياة الزهد والتعبد التي عاشها بعد ذلك كما ذكر محيي الدين بن عربي في الكوكب الدري أن له أستاذة تدعي فاطمة النيسابورية (المتوفاة سنة ٣٢٣ هـ / ٨٣٤ م) التي قال عنها ذو النون: أنها ولية من أولياء الله وهي أستاذتي وقد تكلمت في الصدق والإخلاص والإحسان وقال لها ذو النون عظيني فقالت له الزم الصدق وجاهد نفسك في أفعالك " وكان قد التقى بها في مكة المكرمة وأخذ عنها وتكلم معها في مقامات أهل الولاية[٤]. ولا شك أن ذي النون قد تعلم منها واستفاد حتى أنه قال عنها: " وهي أستاذتي".

---

(١) د. التفتازاني: ابن عطاء الله السكندري وتصوفه، ط ٢، ص ٢٨٠.

(٢) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، ل ١٠.

(٣) المرجع السابق: نفس اللوحة.

(٤) ل ١٢٢ ظ – ١٢٣ و.

ويروي محيي الدين بن عربي أن صوفينا كان أول من تكلم في طريقة الصوفية وبرع وسما على المجتهدين في العبادة ففتح عليه الله في المعرفة. وظهر عنه في العلم ما لم تبلغه أفهام أهل وقته فسموه زنديقا. وبعثوا به إلى أمير المؤمنين المتوكل العباسي وكان ذلك سنة أربع وأربعين ومائتين[١].

وقال عنه أبو الفلاح بن العماد[٢]: " كان له فصحاة وحكمة وشعر وهو أول من تكلم في مصر في ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية فأنكر عليه فقهاء المالكية، وعبد الله بن الحكم – وهو كما جاء في كتاب (تاريخ التراث العربي)[٣]. مؤرخًا – ووشوا به إلى المتوكل الذي اتهمه بالزندقة فاستحضره من مصر إلى بغداد مقيدا. كما هاجمته المعتزلة لقوله بقدم القرآن[٤].

قال ذو النون يروي هذه الحادثة: " لما حملت إلى بغداد رمى بينهما مقيدا على باب السلطان فمرت بينهما امرأة زمنة (أي عجوز) قبل دخولي فقالت لي: إذا دخلت على المتوكل لا تهابه ولا تراه فوقك. ولا تحتج لنفسك، محقا كنت، أو متهما، لأنك إذا هبته سلطه الله عليك. وإن حاججت عن نفسك لم يزدك ذلك إلا وبالا، فإن كنت بريئا، فادع الله ينتصر لك ولا تنتصر لنفسك فيكلك إليها[٥] وقد فعل ذو النون ما نصحته به العجوز.

ثم يروي ذو النون ما حدث منه بين الخيفة المتوكل قائلا: " وعندما أدخلوني سلمت على الخليفة فقال لي: ما تقول فيما قيل في يد المالك؟ فسكت وقال وزيره: هو عندي حقيق بما قيل فيه. ثم قال لي (أي الخليفة) لم لا تتكلم؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، إذا قلت لا، أكذبت المسلمين فيما قالوا. وإن قلت نعم كذبت على نفسي بشيء لا

---

(١) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري، ل ١٢٣.

(٢) شذرات الذهب: ص ١٧.

(٣) فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي، جـ ٢، ص ٤٤٤.

(٤) نفس المرجع السابق.

(٥) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري، ل ١٢٢.

يعلمه الله تعالى مني. فافعل ما ترى، إنني غير منتصر لنفسي، فقال أمير المؤمنين: هذا رجل برأيي مما قيل فيه[١].

وقد طلب الخليفة من ذي النون أن يعظه فقال له: " يا أمير المؤمنين، رجل يعلم أن الله خلقه وخلق الجنة من أجله إن طاعه وخلق النار من أجله إن عصاه، لا يكون على مثل ما روميت به من البدعة، ولا مثل ما أنتم عليه من الغفلة "، فخلى عنه وبكى وصار المتوكل يحبه منذ ذلك التاريخ ويقدره ويقول عنه: إذا ذكر أهل الورع فحي هلا بذي النون[٢].

روى ابن جعفر صديق ذي النون قال: " كنت عند ذي النون المصري فتذكرنا حديث طاعة الأشياء للأولياء، فقال ذو النون " من الطاعة أن أقول لهذا السرير يدور في أربع زوايا البيت، ثم يرجع إلى مكانه فيفعل، فقال: فدار السرير في أربع زوايا البيت وعاد إلى مكانه وكان هناك شاب أخذ يبكي حتى مات في وقته "[٣].

وروى أن تقاتل اثنان أحدهما من أولياء السلطان والآخر من الرعية، فعدا الذي من الرعية عليه، فكسر ثنته، فتعلق الجندي بالرجل وقال: بيني وبينك الأمير فجازوا بذي النون فقيل لهم اصعدوا إلى الشيخ فصعدوا، فعرفوه ما جرى فأخذ السن المكسورة ثم بلها بريقه وردها إلى فم الرجل في مكانها وحرك شفتيه، فتعلقت بإذن الله تعالى، فبقى الرجل يفتش فاهه فلم يجد أسنانه إلا سواء[٤].

ولا مجال لحصر ما روى عن صوفينا من كرامات، أو ما روى هو من كرامات من التقى بهم من أولياء الله الصالحين، ومن يريد المزيد في هذا الخصوص فليرجع إلى "الرسالة القشيرية " وكتاب " طبقات الصوفية " لعبد الوهاب الشعراوي وغيرها من كتب الطبقات.

---

(١) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري، ل ٢١ ع.

(٢) نفس المرجع السابق.

(٣) الرسالة القشيرية: جـ ٢، ص ٦٨٨.

(٤) الرسالة القشيرية: جـ ٢، ص ٧١٠.

٦ - مكانته وعصره وثقافته:

يمكن أن نستخلص مما ذكر عن ذي النون في كتب التراجم المختلفة أنه كان له شأن عظيم ومكانة رفيعة، فقد استهل أبو نعيم الأصبهاني ترجمته بقوله: "العلم المضي، والحكم المرضي، الناطق بالحقائق الفاتق للطرائق، له العبارات الوثيقة والإشارات الرقيقة، نظر فعبر، وذكر فازدجر. أبو الفيض ذو النون إبراهيم المصري رحمه الله"(١).

وقال عنه المناوي: "ذو العبارات الوثيقة والإشارات الرقيقة والصفات الكاملة، والنفس العالمة والهمم الجلية والطريقة المرضية، والمحاسن الجزيلة المتبعة، والأفعال والأقوال التي لا تخشى منها تبعه. زهت به مصر وديارها وأشرق بنوره ليلها ونهارها(٢).

كما كان لذي النون مكانة خاصة عند الخليفة المتوكل العباسي كما ذكرنا من قبل، وقد تأصلت هذه المكانة في نفوس الناس بعد تبرأته من الوشاية.

وعن ثقافة ذي النون يقول المرحوم الدكتور مصطفى حلمي أن ذا النون كانت له ثقافتان: أحدهما ثقافة علمية دينية، والأخرى ثقافة علمية دنيوية وأن لهاتين الثقافتين أثرهما في تكوين حياته الروحية.

أما الثقافة العلمية الدينية فنتبين إذا عرفنا أنه تلقى علوم الشريعة والحقيقة بعض أساتذته حينا، وعن طريق الرواية حينا آخر على أننا لا نعرف من أساتذته كما سبق وذكرنا ذلك إلا شقران العابد وإسرافيل المغربي، وفاطمة النيسابورية، كما أنه تأثر وأثر في علماء عصره الذين التقى بهم وخاصة الإمام أحمد بن حنبل، وبشر ابن الحافي، يسري السقطي ومعروف الكرخي، وغيره ممن سبق ذكرهم.

وكان ذو النون من رواة الحديث روى عن مالك والليث وابن لهيعة، والفضل ابن عياض، وابن عيينة، ومسلم الخواص وغيرهم، وروى عنه الحسن بن مصعب النخعي، وأحمد بن صبح الفيومي، والطائي وغيرهم(٣).

---

(١) حلية الأولياء: جـ ١، ص ٢٣١.

(٢) انظر: المرجع السابق: ص ٢٣٢.

(٣) انظر: عبد الرؤوف المناوي: الكواكب الدرية، جـ ١، ص ٢٢٣.

وهكذا كان لشيخنا ثقافته الدينية الواسعة جعلت منه عالما في الشريعة والتصوف في الحديث، وقيل عنه أن أحاديثه كانت ثقة[١] غير أن البعض أشار إلى أن أحاديثه ضعيفة ففيها نظر[٢]، ويقول الأستاذ الدكتور محمد مصطفى حلمي أن ذا النون، وإن كان عالمنا بالحديث وراويا له، فهو لم يشتغل به إلى الحد الذي جعل منه شغله الشاغل، بل لم يلبث أن انصرف عنه إلى الاشتغال بنفسه، وليس أدل على ذلك من إنه سئل: لم لا تشتغل في الحديث فأجاب بقوله " للحديث رجال: وشغلي بنفسي استغرق وقتي "[٣]. فقد كن يحيا حياة روحية وتحقق بمقامات أهل الطريق، وكان صاحب مذهب نظري في التصوف إلى جانب ممارسته العملية للتجربة الصوفية.

أما الجانب العملي في ثقافة ذي النون فيرجع إلى أنه كان من الدارسين للطب، والكيمياء، ومن المشتغلين بهما، وكانت له مصنفات في تلك العلوم كما سنرى بعد، وكان عالما باللغة السريانية، ويقال إنه وفق في حل بعض الرموز والنقوش المرسومة على البرادي (جمع بردية) التي ادعى ذو النون إنه قرأها وحلها.

عصره:

وقد عاش ذو النون في عصر الخلافة العباسية خلال فترة حكم الخلفاء – أبي جعفر المنصور – ومحمد المهدي – وموسى الهادي – وهارون الرشيد – ومحمد الأمين – وعبد الله المأمون – وأبي إسحق المعتصم – وهارون الواثق – والمتوكل بالله. وهم الخلفاء الذين حكموا في الفترة ما بين ١٥٥ إلى ٢٤٥. ولم يكن لأحد منهم تأثيرا على ذي النون سوى الخليفة الواثق لتمسكه برأي المعتزلة في خلق القرآن والخليفة المتوكل الذي حاكم ذو النون بتهمة الزندقة، ثم برأه وأثنى عليه. وكان عصره حافلا بالثقافة وازدهار العلم فقد ظهر أئمة الفقه وعلماء الحديث وكثير من مشايخ الصوفية الذين تأثر بهم صوفينا. فكان عصره متقدما من الناحية العلمية والروحية والفقيهة

(١) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري، ل ٩.

(٢) عبد الرؤوف المناوي: الكواكب الدرية، جـ ١، ص ٢٢٣.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية: جـ ٤، ص ٤١٥.

والأدبية والعلمية، وكان لذلك أثره على كل علماء وأدباء وفقهاء وصوفية هذا العصر، بما فيهم ذو النون.

وكان لذي النون سياحات زادت من ثقافته وعلمه داخل مصر وخارجها، وفي صعيد مصر والفسطاط وجبل المقطم والإسكندرية وتيه بني إسرائيل بسيناء وبيت المقدس ودمشق وبغداد ومكة وأنطاكيه وجبال الكام، ووادي كنعان وجبال نيسان[١]. وكان في كل موطن ينزل به يلتقي برجال الطريق يأخذ منهم ويأخذوا عنه.

وقد كان لذي النون تلاميذه الذين أخذوا عنه منهم: يوسف ابن الحسين الرازي (المتوفى سنة ٣٠٢هـ / ٩١٢م) الذي اتصل به واستمع إليه وأخذ عنه[٢]. وكان له تلميذ في الكيمياء هو عثمان بن سويد أبو حري الاخميني[٣].

٧ - وفاته وقبره:

اختلفت التراجم حول تاريخ وفاته: فجاء " شذرات الذهب"[٤] لابن العماد أنه سنة ٢٤٤ هـ وجاء في "الأعلام" للزركلي أنه توفى سنة ٢٤٥هـ[٥]، أما فؤاد سزكين إنه توفى (٢٤٦هـ / ٨٦١ م)، وذكر إنه ولد ١٨٠ هـ / ٧٩٧ م[٦]. أي إنه عاش حسب ذلك ٦٤ سنة فقط وليس ٩٠، كما جاء في دائرة المعارف الإسلامية[٧]، نقلا عن السيوطي[٨]. وقال في ترجمته إنه قارب التسعين وإنه توفى سنة ٢٤٥ هـ.

---

(١) بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، ل ١٨.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية: جـ ٤، ص ٤١٨، مقالة الدكتور محمد مصطفى حلمي.

(٣) الرسالة القشيرية: جـ ١، ص ٣٥٩.

(٤) ص ١٧، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥٠ هـ.

(٥) ط٢، ص ٨٢، القاهرة، ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م، كما ذكر هذا التاريخ أيضًا إسماعيل، هدية العارفين، ص ٢٤٩.

(٦) تاريخ التراث العربي: جـ ص، ص ٤٤٤.

(٧) د. محمد مصطفى حلمي: تعليق على مادة ذي النون، جـ ٤، ص ٤١٢.

(٨) السيوطي: حسن العشرة، جـ ١، ص ٢١٨.

وقيل: إنه توفى سنة ٢٤٦ هـ أي سنة ٤٨ هـ[١]. وفي ترجمة محيي الدين بن عربي له أورد جميع هذه التواريخ السابقة أو أن من أرخو لذي النون، وذكروا تلك التواريخ المختلفة التي تتراوح ما بين سنة ٢٤٤ هـ إلى سنة ٢٤٨هـ، وقال إنه توفى في يوم الاثنين لليلتين خلتا من ذي القعدة سنة ست وأربعين واثنين[٢] والأرجح أنه توفى في سنة ٢٥٤هـ / ٨٥٩ م فهذا التاريخ قد أجمعت عليه أغلب التراجم والطبقات.

وقال عنه عبد الوهاب الشعراني (المتوفى سنة ٩٧٣ هـ / ١٥٦٥ م) في طبقاته الكبرى توفى بالجيزة وحمل إلى قارب (ليعبر النيل) إلى الضفة الأخرى، مخافة أن ينقطع الجسر كوبري قصر النيل حاليًا) من كثرة الناس في جنازته؟ ورأى الناس طيورًا خضراء على جنازته حتى وصلوا إلى قبره. ودفن بالقرافة الوسطى في مقابل أهل النفير بالفسطاط.

٨ - ما كُتِبَ حديثاً عن ذي النون:

إلى جانب ما ذكرنا من كتب التراجم والطبقات والمستشرقين التي تناولت سيرة ذي النون ومذهبه في هامش الصفحة الأولى والثانية ومن هذا البحث فهناك أبحاث حديثة تناولت سيرة ذو النون ونصوفه تذكر أهمها:

١- مقالة للمرحوم الدكتور محمد مصطفى حلمي بدائرة المعارف الإسلامية الترجمة العربية تعليق على مادة ذي النون تناول فيها سيرته وحياته ومذهبه الصوفي وهي مقالة قيمة ساهمت في وضع الخطوط العريضة أمام الباحثين في ذي النون المصري وتصوفه الجزء الرابع تشغل من ص ٤٠٩ إلى ٤٣٠.

٢- رسالة ماجستير بعنوان " ذو النون المصري وتصوفه " مقدمة من أسامة كامل حسن سنة ١٩٧٦ – تحت إشراف الدكتور أبو الوفا الغنيمي التفتازاني وهي رسالة قيمة وبها جهد لا ينكر ولا شك أن هناك دراسات أخرى قد تعرضت لذو النون المصري فهو شخصية مصرية رائدة لها ثقلها في التصوف الإسلامي عامة والتصوف الإسلامي بخاصة.

---

(١) ابن عربي: الكوكب الدري، ل ٨ و.

(٢) نفس المرجع السابق.

مصنفات ذي النون

قد لاحظت من خلال بحثي عن مصنفات ذي النون أن منها ما يوجد في ألمانيا ما يوجد في مكتبات فرنسا ومكتبات بريطانيا والهند وتركيا وسوريا والسنغال وغيرها من مكتبات العالم كما لاحظت أن أغلب مصنفاته في الكيمياء ويطلق عليها " الصنعة الكريمة " وبعضها في الطب والسحر وبعضها في الحديث ومنها أدعية ومنها ما يتناول الأخلاق الدينية والتصوف. وإن مذهبه الصوفي لا يجمعه مصنف بعينه وإنما هو مبعثر هنا وهناك في كتب التراجم التي أهمها ما كتبه عنه الصوفي الكبير محيي الدين بن عربي في الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري"[(١)]. وما كتبه عنه الحافظ السيوطي في " السر المكنون في مناقب ذي النون "[(٢)]. وما كتبه أبو نعيم الأصبهاني في " حلية الأولياء "[(٣)]. وهذا إلى جانب ما جاء في كتب التراجم التي ذكرت في أول البحث، والحقيقة إنه لا يخلو كتاب من كتب الطبقات والتراجم القديمة إلا ذكر صوفينا في سطور تقل وتكثر من مصنف لآخر.

ولقد عبر ذو النون في كثيرًا من الأحيان عن مذهبه الصوفي بالشعر، فقد كان صوفينا شاعرا. كما أنه ألف قصيدة في الكيمياء وسيأتي الحديث عنها.

والحقيقة أن كل الدراسات التي تناولت ذي النون ومذهبه الصوفي، تعد ناقصة بما فيها هذا البحث وذلك لسبب هام وهو أن ما كتبه ذو النون نفسه عن سيرته وتصوفه غير متوفر في مصر ولا تصل إليه أيدي الباحثين فمعلوماتنا عن محتويات مصنفاته على

---

(١) ارجع إلى هامش الصفحات الأولى من هذا البحث لمعرفة مزيد من التفاصيل عن تلك المصنفات.

وانظر أيضًا: Carl Berockelmen: Gestchichte Der Arabischen Litterature, I. ٣٥٣.

(٢) ارجع إلى هامش الصفحات الأولى من هذا البحث لمعرفة مزيد من التفاصيل عن تلك المصنفات.

وانظر أيضًا: بروكلمان، ملحق ١، ص ٣٥٣.

(٣) انظر: جـ ٩، في ١٠ صفحات متفرقة.

الأقل بوصفنا لها يتطلب الحصول عليها وحتى يكون العمل مكتمل لا بد من جمع تلك المصنفات من مكتبات العالم وتحقيقها وأخرجها إلى النور وهذا يتطلب جهدا ووقتا وتكلفة قد لا تتيسر لأغلب الباحثين. والعزاء الوحيد لذلك أن ما استندت عليه من المصادر المتوفرة التي أمكن الحصول عليها أمكن عن طريقها تبين سيرته ومذهبه الصوفي وهي مصادر قديمة موثوق فيها. أما المصنفات فإني أكرر أنها في حاجة إلى السفر للخارج لجمعها أو تصويرها للحصول عليها بأي وسيلة ممكنة.

وواضح أنه من الصعوبة بمكان عمل تصنيف زمني لمصنفات ذي النون أو تصنيف أبجدي لها، وكل ما أستطيعه هو عمل تصنيف بحسب الموضوعات وقد رأيت أن يكون التصنيف لمؤلفاته في العلوم العملية كالطب والكيمياء. ومصنفاته في العلوم النظرية كالتصوف في الحديث والأخلاق الدينية.

أولاً: مصنفاته في العلوم العملية

(١) كتاب المجربات[(١)]:

يضم وصفات في الطب والكيمياء والسحر والطلاسم، مكتبة باريس ٢٦٠٨ مكون من ٩١ ورقة كتب سنة ١٠٠٠ هـ، انظر فجدا ٤٨٩.

(٢) قصيدة في الصنعة الكريمة[(٢)]:

توجد منها نسخة بمكتبة باريس ٤/٢٦٠٩ (من ورقة ٤٧ – ٥١) كتبت في القرن الحادي عشر الهجري. انظر فجدا ٧١٢، ونسخة بالمتحف البريطاني، ٦٠١، الإضافات ٤/٧٥٩٠ (من ورقة ٨٥ – ٩٠). كتبت سنة ١٢٠٦ هـ ونسخة مصورة بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة ٤٦/٤/٣، ونسخة في مكتبة بودليا ٢٥٠/٢ رقم ٥٣٨ (من ورقة ١٥٠ – ١٥١)، ونسخة بمكتبة جار الله ٢/٢١٣٠ (من ٢٣٥ ب – ٣٦ أ) كتبت في القرن العاشر الهجري – ونسخة بمكتبة بشير أيما ٦٤٩ (من ٣٢ أ – ٣٣ ب) قرن عاشر هجري، ونسخة بمكتبة باريس ٥٠٩٩ (من ورقة ١٨١ – ١٨٣) القرن العاشر الهجري انظر فيجدا ٧١٢.

وقد قامت على هذه القصيدة شروح كثيرة هي:

أ- الدر المكنون في شرح قصيدة ذي النون: تأليف ابن علي الجلدكي المتوفى سنة ٧٤٣ هـ / ١٣٤٢ م، انظر دار الكتب بالقاهرة ٣٩٣/٥، كيمياء ٢٠ وهي (من ورقة ١ – ٤٣) ومنها نسخ متعددة مكتبات مختلفة منها حاجي محمود ٦٢٢٥ – جار الله ٧/١٧٠٢ من ورقة ٦٨ – ٩٩) وكذلك ٢/٢٠٦٥ (من ورقة ١٧ أ – ٣٤) كتبت في القرن الحادي عشر الهجري – أسعد ١٩٣٢ (من ورقة ٣٣٧ أ – ٣٤٧ب) كتبت سنة ٧٤٢ هـ - فاتح ٤/٣٢٢٧.

---

(١) فؤاد سزكين: جـ ٢، ص ٤٤٤، ذكره بروكلمان، ملحق ١، ص ٣٥٣.

(٢) الصنعة الكريمة: يقصد بها الكيمياء، وقد ذكر هذه القصيدة في بروكلمان، ملحق ١، ص ٣٥٣، وفؤاد شزكين، جـ ٢، ص ٤٤٤.

ب- ولهذا القصيدة شرح آخر قام به أحمد بن عامر الهمداني الحاشدي (كتبه سنة ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) فاتيكان، فيدا ٣/١٠٤٣ (من ورقة ٦٦ – ٨١ أصفيه ١٤١٦/٢ – كيمياء ٢٦.

(٣) **رسالة في العناصر الثلاثة**[١]: وهي باللغة الفارسية، سراي أحمد الثالث ٢٠٧٥ (من ورقة ٧٦ ب – ٧٩ أ).

(٤) **رسالة في خواص الأكسير**[٢]: فاتح ٥/٥٣٠٩ (من ورقة ١٠٥ أ – ١٠٩) القرن العاشر الهجري.

(٥) **رسالة في الحجر**[٣]: أولها " يؤخذ الحجر الكريم عند نزول الشمس... الخ ".

(٦) **رسالة في الصنعة**[٤]: أولها: " إذا أحببت التدبير... الخ " حاجي محمود ١٣/٤٢٢٤ (من ورقة ٦٤ب – ٦٧ أ) القرن الثالث عشر الهجري.

(٧) **رسالة الثقة في الصنعة**[٥]: المخطوط السابق (من ٦٧ أ – ٦٧ ب).

(٨) **رسالة في الحكمة العظمى والصنعة المباركة**[٦]: أولها: " اعلم أن تدبير (مدبر) لفلاسفة ليس يشتري بثمن "، جازيت ٩٤٧ (١٥ ورقة) القرن التاسع الهجري. الفلاسفة ليس يشتري بثمن "، جازيت ٩٤٧ (١٥ ورقة) القرن التاسع الهجري.

(٩) **رسالة في تدبير الحجر الكريم**[٧]: أولها: قال ذو النون لتلميذه في تدبير الحجر... الخ " حاجي محمود ٨/٤٢٢٤ (من ورقة ٤٩ أ – ٥٤ ب) القرن الثالث الهجري.

---

(١) بروكلمان: ملحق ١، ص ٣٥٨، وانظر فؤاد سزكين، جـ ٢، ص ٤٤٦.

(٢) المرجعان السابقان نفس الصفحات.

(٣) المرجعان السابقان نفس الصفحات.

(٤) المرجعان السابقان نفس الصفحات.

(٥) المرجعان السابقان نفس الصفحات.

(٦) المرجعان السابقان نفس الصفحات.

(٧) بروكلمين: ملحق ١، ص ٣٥٨، ونظر فؤاد سزكين، جـ ٢، ص ٤٤٦.

ثانياً:
مؤلفاته في التصوف والأخلاق الدينية والحديث

(١) **رسالة في ذكر مناقب الصالحين**[١]: أصفيه ١/١٢، أخلاق ٣٢.

(٢) **دعاء**[٢]: رامبور ١/٣٣٧، دعاء ٢٩٢ (٢٧ ورقة).

(٣) **صفة المؤمن والمؤمنة**[٣]: مكتبة الظاهرية، مجاميع ٨٧/١١.

(٤) **له عدد من الأقاصيص التربوية** بمكتبة برلين ٤٣٣٧: الأوراق من (٤٦ ب – ٦٩ أ). القرن الحادي عشر الهجري.

(٥) **رسالة تتناول أقواله والأحاديث التي رواها مع موجز لحياته**، مكتبة برلين ١٣٩٧ الأوراق من (٥٦-٦٠) سنة ٨٧٨ هـ.

ويذكر فؤاد سزكين أنه ينسب إليه كتاب يسمى " الكتاب العجائب " غير أن نسبته غير مؤكدة – دار الكتب القاهرة يحمل رقم ٢٠ كيمياء حرف م. ق أ ومنه نسخة مصورة في برلين وقد أثبت الباحث أسامة كامل حسن صحة هذا القول وأثبت أن هذه الرسالة ليست لذي النون وأوضح ذلك بالأدلة القاطعة[٤]، كما أشار سزكين في الهامش[٥] إلى أنه ليس لديه معلومات عن رسالة الكيمياء وهي مخطوط بمكتبة اصفية في الهند ٣/١٤١٦ – كيمياء ٢٤.

وذكر أنه لا بد من بحث الرسالة التي الفها ذو النون وشرحها الجلدكي بعنوان "السر المصون في شرح رسالة ذي النون " المتحف البريطاني مخطوطات شرقية

---

(١) المرجعان السابقان نفس الصفحات.

(٢) المرجعان السابقان نفس الصفحات.

(٣) المرجعان السابقان نفس الصفحات.

(٤) انظر رسالته عن ذو النون المصري وتصوفه ص ١٨-١٩ تحت إشراف د. التفتازاني.

(٥) انظر: فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، جـ ٢، ص ٤٤٦.

١٢١٤٩[١]، كما ذكر له ابن النديم في الفهرست كتاب باسم " الركن الأكبر "[٢]، وكذلك ذكر في هدية العارفين[٣].

(١) انظر هامش: ص ٤٤٧ في الجزء الثاني من كتاب سزكين.

(٢) انظر: ص ١٥٧.

(٣) انظر: المجلد الأول، ص ٢٤٩.

مذهب ذي النون الصوفي

إن ذا النون المصري وغيره من الصوفية الملتزمين بالكتاب والسنة قد بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد صانوا بها عقائدهم من البدع وتمسكوا بما كان عليه السلف الصالح من التوحيد الخالص، وكان ذو النون في مذهبه الصوفي سلفيًا ملتزمًا رغم ما وجه إليه من اتهامات بأنه زنديق. فقد كان يخشى المحظورات ولم يكن عنده تمثيل ولا تعطيل ولم يقم بالاتحاد أو الحلول أو وحدة الوجود أو وحدة الشهود وإنما كان تصوفه خال من الشطحات وتلك كما سبق هي سمة التصوف المصري السني. وقد سئل عن التوحيد فقال " التوحيد هو أن تعلم أن قدرة الله تعالى في الأشياء بلا مزاج وصنعه للأشياء بلا علاج وعلة كل شيء صنعه. ولا عله لصنعه، وليس في السماوات العلا ولا في الأرضين السفلى مدبر غير الله. وكل ما تصوره في وهمك فالله بخلاف ذلك[1]. ويتضح من هذا النص أن صوفينا لم يقل بالحلول أو الاتحاد، وإنما هو يؤمن أن الله واحد متعال خالق مبدع بلا مزاج وأنه خلق الكون ومدبره دون منازع وإنه تعالى لا يدرك بالأذهان ولا تتصوره الأوهام فهو بخلاف كل تصور يتصوره الإنسان.

ويقول في شعره:

رَبٌّ تَعَالَى فَلَا شَيْءٌ يحيط به ... وَهُوَ المُحِيْطُ بِنَا فِي كُلِّ مُرْتَصِدِ

لَا الأيْنُ وَالحَيْثُ والتَّكْيِيْفُ يُدْرِكُهُ ... وَلَا يُحَدُّ بِمِقْدَارٍ وَلَا أَمَدِ

وَكِيْفَ يُدْرِكُهُ حَدٌّ وَلَمْ تَرَهُ ... عَيْنٌ وَلَيْسَ لَهُ فِي المِثْلِ مِنْ أَحَدِ

أَمْ كيْفَ يَبْلغُهُ وَهْمٌ بِلَا شَبَهٍ ... وَقَدْ تَعَالَى عَنِ الأَشْبَاهِ وَالوَلَدِ

من أنشأ قَبْلَ الكَوْنِ مُبْتَدِعًا ... مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ قَدِيْمٍ كَانَ فِي الأَبَدِ

وَدَهَّرَ الدَّهْرَ وَالأَوْقَاتَ وَاخْتَلَفَتْ ... بِمَا يَشَاءُ فَلَمْ تَنْقُصْ وَلَمْ تَزِدِ

---

(١) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري، ل ٤٥.

وكان له نظرية في مجاهدة النفس وفي المحبة والمعرفة وهذا ما سنعرض له[١].

وسيتضح لنا بجلاء من عرض مذهب ذي النون الصوفي إنه كان صوفيا ملتزما بالشريعة في تصوفه، ويربط ذو النون بين الحقيقة والشريعة أو بين علم الباطن وعلم الظاهر ويرى أنهما أساس التوحيد مع التسليم لله سبحانه مقدر كل شيء والذي بيده النفع والضر. وقال: "من لا يعلم علم التوحيد لا يفهم التشبيه من التعطيل، ومن لم يعلم علم الظاهر لا يفهم الحلال من الحرام، ومن لم يعلم علم الباطن لا يصفو له العمل ولا يقدر على الإخلاص: والتوحيد، أن يعلم أن النفع والضر والعطاء والمنع والعز والذل بيد الله[٢]. ويبدأ مذهبه بمجاهدة النفس.

(١) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء، جـ ٩، ص ٣٨٨ – ٣٨٩.

(٢) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، ل ٤٧.

(١) مجاهدة النفس:

إن مجاهدة النفس والخلق الحسن من الأمور التي حث عليها الله عباده وطالبها بالالتزام بها في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[١]. وهي صفة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الذي اعتبر الجهاد ضد الأعداء هو الجهاد الأصغر وجهاد النفس هو الجهاد الأكبر لأنه جهاد الإنسان ضد نفسه لينقيها من الأخلاق السيئة والاستسلام للأهواء والشهوات فهي أمراض تصيب النفس الإنسانية الضعيفة وعلى الإنسان أن يجاهد لمداواة نفسه من أدران الرذيلة والخبائث، قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾[٢].

ويقول صوفينا في مجاهدة النفس: " ليس بذي لب من جد في أمر دنياه وتهاون في أمر آخرته، ولا من سفه في مواطن حلمه ولا من تكبر في مواضع تواضعه، ولا من فقد منه التقوى في مواطن طمعه، ولا من غضب من حق إذا قيل له، ولا من زهد في ما رغب العقلاء قلبه، ولا من رغب فيما يزهد العقلاء فيه، ولا من طلب الانصراف عن غيره لنفسه، ولا من نسى الله في مواطن طاعته وذكر الله في مواطن الحاجة إليه، ولا من جمع العلم ليعرف به ثم أثر عليه هواه بعد تعلمه، ولا من قل منه الحياء من الله على جميل ستره، ولا من أغفل الشكر على إظهار النعمة، ولا من عجز عن مجاهدة عدوه، ولا من جعل مرونة لباسه ولم يجعل أدبه درعه، ولا تقواه لباسه، ولا من جعل علمه ومعرفته تظرفا وتزينا في مجلسه[٣].

وقد أبان ذو النون في هذا النص عن الآفات التي يجاهد الإنسان نفسه في التخلص منها وهي تتلخص في: حب الدنيا، وترك الآخرة، وعدم الصبر، والغرور والكبر، وطمع النفس الذي ينسى صاحبه تقوى الله، والغضب من الحق إذا قيل له، والزهد فيما يقبل عليه العقلاء من العبادات، والخير والطاعة، والإقبال على ما يزهدوا فيه، والأنانية،

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

(٢) سورة الشمس: الآيات ٩ – ١٠.

(٣) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، ل ٥٠.

والغفلة عن الله في السراء وعدم ذكر الله في السراء وإساءة استخدام العلم، وعدم الحياء من الله والغفلة عن شكره على نعمه، والتقاعص عن مواجهة العدو والتباهي بفاخر الثياب دون تقوى الله، والتفاخر بالعلم في المجالس، ومجاهدة النفس بالصلاة والصوم والذكر والسماع والعزلة والخلوة، وغيرها من الرياضات التي ترفق القلب وتهذب النفس وتبعث على الوجد والتأمل والتفكر في الله، كما يصطنع السالك رياضات روحية لتهذيب نفسه وتبديل صفاتها الذميمة بصفات حميدة فيتحقق بالتوبة والزهد والصبر والتوكل والصدق والمحبة ومحاسبة النفس ومراقبتها والإحسان والتقوى والشكر والرضا والاستقامة والإخلاص وغيرها من المقامات الصوفية حتى يصل إلى أعلى الدرجات. ويتحقق بالكمال الخلقي وتطهر روحه ويصفو قلبه ويتهيأ لمعرفة الله معرفة ذوقية كشفية، ويصير صوفيا متحققا عارف بالله ولذلك عرف شيخنا الصوفي بقوله: "الصوفي من إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق وإن سكت نطقت عنه جوارحه بقطع العلائق"[(١)]، وهذا يعني أن الصوفي إنسان صفي قلبه من كدورات الشهوة والهوى[(٢)] وتعلق قلبه بالله حتى استنار بنور الله سره وكشف الله له عن الحقائق المدركة في عالم الغيب فعرف الذات الإلهية وصفاتها وأسمائها وأفعالها. وعرف معنى ترتيب العرش والكرسي والروح والملائكة، وحقائق الموجودات في عالم الغيب والشهادة، وعرف ترتيب الأكوان معرفة ذوقية من لدن الله، مما جعله إذا نطق أبان عن تلك الحقائق، وإن سكت كان مع الله متأملا متفكرا ذاكرا له بروحه وسره متجها إليه تعالى بكل جوارحه، وصار في حال اتصال روحي بالله وقطع العلائق بما حوله وفنى عن نفسه وبقى بالله لا يشهد غيره فبدى ذلك على جوارحه مع لزومه الصمت والكون.

ولم يكن شيخنا أول من عرف الصوفي والتصوف فقد سبقه إلى ذلك معروف الكرخي المتوفى سنة ٢٠٠ أو ٢٠١ هـ، ويقال إنه أول من عرف التصوف بقوله:

---

(١) السلمي: طبقات الصوفية، ص ١٠.

(٢) الهوى هو ما تهواه نفس الإنسان من أمور معنوية كالمناصب القيادية وحب الرئاسة والظهور، أما الشهوات فهي ما تشتهيه النفس من لذات حسية كالمأكل والمشرب والملبس وغيرها.

"التصوف هو الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق"[١] وهو يعني أن التصوف يصل بالسالكين إلى الحضرة الإلهية فينهلون من المعرفة النورانية ويطلعهم الله على الحقائق الذوقية. وهو عنه أيضًا الزهد فيما عند الناس، فالصوفي الحق هو من يزهد فيما عند الله ويحبه الله ويذهب فيما في أيدي الناس فيحبه الناس.

وقال ذو النون أيضًا: " الصوفية آثروا الله تعالى على كل شيء فآثرهم الله على كل شيء، فكان من إيثارهم أن آثروا علم الله على علم نفوسهم وإرادة الله على إرادة نفوسهم"[٢].

ويوصي صوفينا المريد في بداية الطريق قائلاً: " يا أخي وصيتك بتقوى الله العظيم والمراقبة له، حيث لا يراك أحد إلا الله واجتهد إلى خلع قناع الغافلين وانتهى من رقدة الموت، وفر إلى السباق في ميدان السابقين ولا تفتر عن الله "[٣]. فعلى السالك الطريق إلى الله أن يخلع قناع الغفلة ويفر إلى الله ليصل إليه ويصير من الواصلين.

ولا يصل الصوفي إلى تلك المنزلة إلا بعد أن يعبر طريق طويل في سبيل مجاهدة نفسه ومحاربة الشر فيها وتزكية الخير، حتى تتهذب وتسمو وتصفو، ولا يتأتى لها ذلك إلا بالإقبال على العبادات والطاعات، واجتناب التعلق باللذات الحسية والتقرب إلى الله والانصراف عما يشغل عنه. ويقول ابن خلدون في مقدمته: "الأصل في التصوف هو العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والأعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة، ومال، وجاه"[٤]، وبذا يتحقق للسالك ضبط النفس وكبح جماحها ومقاومة ميولها الشريرة وصرفها بالإرادة والعزيمة عن متع الحياة الدنيا التي تشغل الإنسان عن التقرب من ربه فيتم لها الصفاء والتطهر من أضران الشهوة الجسدية والهوى النفسي ويصير أهلا لتقبل الفيوضات الربانية.

---

(١) الرسالة القشيرية: ص ١٢، مطبعة صبيح، ص ١٢.

(٢) السهروردي: عوارف المعارف على هامش إحياء علوم الدين، للغزالي، جـ ١، ص ٣١٩.

(٣) ابن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، ل ٤٢.

(٤) ابن خلدون: المقدمة، ٨٦.

ويحدثنا القشيري في رسالته عن الصوفية قائلا: "هذه الطائفة صفوة أولياء الله جعل قلوبهم معادن أسراره واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره، فهم الغياث للخلق والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق بالحق، صفاهم من كدورات البشرية، ورقاهم إلى مجاراة المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الاحدية ووفقهم للقيام بآداب العبودية واشهدهم مجاري أحكام الربوبية؛ فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكيف، وتحققوا بما منه سبحانه لهم من التغلب والتصريف، ثم رجعوا إلى الله سبحانه وتعالى، بصدق الافتقار ولفت الانكسار، ولم يتكلوا على ما حصل منهم من الأعمال، وصفا لهم من الأحوال، علما منهم بأنه جل وعلا يفعل ما يريد، ويختار ما يشاء "[1].

وحقيقة مذهب ذو النون الصوفي في مجاهدة النفس – وهو كما يقول مدار كلام الصوفية جميعا – يقول على أربعة أمور هي:

١) حب الجليل.

٢) بغض القليل.

٣) إتباع التنزيل.

٤) خوف التحويل.

- والركن الأول من أركان مجاهدة النفس عنده يقوم كما هو واضح على حب الله سبحانه جل جلاله وحب الجليل من الأعمال والأقوال والتصرفات الصالحة التي ارتضاها الله لعباده المقربين والتي تزيدهم منه قربا وتزيده سبحانه حبا لهم، فحب الله وطاعته هي أول ركن من أركان مجاهدة النفس عند صوفينا.

- والركن الثاني من أركان مجاهدة النفس هو " بغض القليل " من الطاعات والعبادات والأعمال الصالحة، فمن يريد أن يسلك طريق الصوفية لا يقنع بالقليل من العبادات والأعمال التي تقربه إلى الله سبحانه، وإنما يكون محبا للإكثار منها.. ومهما

(١) الرسالة القشيرية: ص ٢ مطبعة صبيح ابن عربي، الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، ل ٤٢.

أدى من طاعة وقربان لله فهو يستنقصها ويشعر إنه مقصر في حق الله وأن أعماله لا تساوي شيئًا ولا تعادل ما أنعم الله عليه به من نعم متعددة.

وإذا أكثر الإنسان من الطاعات كف عن المعاصي وبذلك يتغلب نفسه المطمئنة على نفسه الإمارة بالسوء ويفلح في كف هوى نفسه وانقيادها للشهوات الجسدية وبذلك تضعف بشريته وتقوى روحانيته ويصير آهلا للاتصال الروحي بالله عز وجل.

- الركن الثالث من أركان مجاهدة النفس عند شيخنا هو " اتباع التنزيل " وهذا يعني المريد الصادق في أحواله والصادق مع الله في عبادته والتقرب إليه يجب أن يتمسك بكتاب الله وسنة رسوله الكريم ويلتزم بهما في كل أعماله وأقواله وتصرفاته. وهو يقول أن علامات المحب لله متابعة حبيب الله في أخلاقه وأفعاله وأوامره وسنته"[١].

ويعتبر شيخنا أن أكثر الناس هما هم أقلهم خلقا وأن أكثر الناس سعادة هم أكثرهم خلقا، ويقول القشيري في رسالته: " قيل لذي النون المصري: من أكثر الناس هما؟ قال أسوأهم خلقا[٢].

ويذهب ذو النون إلى أن الساعي إلى الله بقلب سليم عليه أن يصحب الله سبحانه للموافقة أي لا يقترف من المعاصي والمخالفات ما يغضب الله تعالى: ويصحب الخلق بالمناصحة، فيقدم لهم النصح والإرشاد فيأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويصحب مع النفس بالمخالفة، فلا ينقاد لها ولا مستسلم لما تأمره به من ارتكاب المعاصي والانغماس بتحقيق اللذات والشهوات وإتباع الهوى، فيقودها إلى طريق الخير، ويصحب الشيطان بالعداوة، فيكون له عدوًا مبينًا فلا يطيعه ولا ينقاد له، ويستعيذ بالله منه، ويستعين عليه بالتقرب إلى الله والإكثار من التعبد والطاعة، يقول ذو النون: "لا

---

(١) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، ل ٤٣.
الرسالة القشيرية: جـ ٢، ص ٥٨٧.

(٢) المرجع السابق: ص ٤٦٩.

تصحب مع الله إلا بالموافقة ولا مع الخلق إلا بالمناصحة ولا مع النفس إلا بالمخالفة، ولا مع الشيطان".

ويرى شيخنا أن من جد في طريقه إلى الله صادقه وعزيمة لا تلين، فإنه يجد الله أمامه منذ بداية سعيه المخلص في الوصول إليه تعالى: ويقول في ذلك: "أول قدم تطلبه، تدركه وتجده "[١]. وهذا يعني أن أول خطوة يخطوها السالك في الطريق إلى الحضرة الإلهية سيجد الله أمامه معينا له تمشيا مع قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: " اطلب الله تجده أمامك[٢]. ومع قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [٣].

- والركن الرابع من أركان مذهب صوفينا في مجاهدة النفس هو " خوف التحويل" فالسالك طريق الصوفية يظل دائمًا في خوف من أن يتحول قلبه أو تفتر عزيمته في مجاهدة نفسه أو يغفل عن ربه لحظة أو يتكاسل عن أداء العبادات والطاعات أو ينشغل عن الله بأمور الدنيا فلا بد أن يراقب نفسه وأن يحاسبها وأن يحرص دائمًا على مواصلة السعي إلى الله تعالى والتقرب إليه بحسن الافتقار وحسن العبودية وصدق اليقين، وهذا ما سيتضح فصيلا في الحديث عن مقام الخوف عند ذي النون.

وقد قال ذو النون: " إذا خرج المريد عن استعمال الأدب فإنه يرفع من حيث أتى"[٤]. فللصوفية آداب وأخلاق يجب على من يريد السير في الطريق الصوفي الالتزام بها وإلا تعثر عن السير في الطريق.

وعلامة القلب المريض عند شيخنا أربعة أشياء:

أ- لا يجد للطاعة حلاوة.

---

(١) السلمي: طبقات الصوفية، ص ١٢ – الرسالة القشيرية، جـ ٢، ص ٥٨٧.

(٢) شرح الكرماني: ٢٢ / ١٨٣، فتح الباري لابن حجر، ١١: ١٧٢، عمدة القارئ للعيني وأخرجه مسلم في الذكر والدعاء والبخاري في الدعاء ٢: ٣٣٦.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٨٦.

(٤) الرسالة القشيرية: جـ ٢، ص ٥٦٣.

ب- ولا يخاف من الله.

ج- ولا ينظر إلى الأشياء بالعبرة.

د- ولا ينال من العلم ما تأدب به[١].

وصاحب هذا القلب لا بد له من العمل على تزكيته وتطيره حتى يصفو فيجد للطاعة حلاوة ويخشى الله ويعتبر من كل شيء ويطلب العلم اللدني والمعرفة الحقة.

والإنسان العاقل عند شيخنا هو الذي يدرك كل مستحسن من الأخلاق وكل جميل من الصفات، فيسعى في تحصيلها والتمتع بها ويقول: " لما خلق الله العقل جعل فيه لطيفة تميله إلى كل جميل "[٢].

والإرادة عند صوفينا هي بوابة الطريق الذي سلكه المريد إلى الله فهو يذهب إلى أن المريد الصادق هو من يلقى علماء الدين ومشايخ الصوفية بالجهل ويرى في نفسه أنه أقل منهم علما وأنه في حاجة إلى ما لديهم من علوم ومعارف. وأن يتطلع إلى الأخذ عنهم والاستفادة بعلوهم والإنصات لهم والتتلمذ على أيديهم. ويلقي الزهاد بالرغبة في أن يكون زاهدا مثلهم مقتديا بهم، ويلقي أهل المعرفة بالصمت أي لا يتحدث في حضرتهم بل يلتزم الصمت حتى يسمع منهم ويطلع على معارفهم تأدبا معهم، واحتراما لمكانتهم، وحبا في مصاحبتهم والاستقاء من معارفهم الربانية وعلومهم الكشفية ويقول في ذلك: " يا معشر المريدين من أراد منكم الطريق فليلق العلماء بالجهل والزهاد بالرغبة، وأهل بالعلم بالصمت[٣].

ويحكى عن ذي النون إنه رأى ببعض سواحل الشام امرأة فقال لها: من أين أقبلت؟ قالت: من عند قوم تتجافى جنوبهم عن المضاجع، فقال: وأين تذهبين؟ قالت؟ إلى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، فقال لها: صفيهم لي: فأنشدت:

---

(١) ابن عربي: الكوكب الدري، ل ٤٣.

(٢) الرسالة القشيرية: جـ ٢، ص ٥٦٣.

(٣) السلمى: طبقات الصوفية، ص ١٢.

قَـوْمٌ هُمُـومُهم بِـاللهِ قَـدْ عَلِقَـتْ فَمَـا لَهُـم هِمَـمٌ تَسْـمُو إِلـى أَحَـدِ
فَمَطْلَـبُ القَـوم مَـوْلاهُم وَسَـيِّدهُم يَـا حُسْـنَ مَطْلَـبِهم لِلواحِـد الصَّـمَدِ
مَـا إِنْ تُنَـازِعُهُم دُنْيَـا وَلا شَـرفٌ مِـن المَطَـامِعِ واللـذات والوَلَـدِ
ولا لِلْـبسِ ثِيـابٍ فَـائِقٍ أَنِـقٍ وَلا لِـرَوْحِ سُـرُوْرٍ حَـلَّ فِـي بَلَـدِ
إِلا مُسَـارَعَةً فِـي إِثْـرِ مَنْزِلَـةٍ قَـدْ قَـارَبَ الخَطْـو فيهـا بَاعِـد الأَبَـدِ
مـنهم رهـائن غُـدران وأوديـة وَفِـي الشـوامخ تلقـاهم مَـعَ الْعـدَد [1]

وكان البسطامي من صوفية عصره كما ذكرنا فيقول ذو النون أنه أرسل إليه رجلا وطلب منهم أن يقول له: إلى متى النوم والراحة، وقد جازت القافلة؟ فقال أبو يزيد البسطامي: لأخي ذي النون: الرجل من ينام الليل كله ثم يصبح في المنزل قبل القافلة، فقال ذي النون: هذا كلام لا تبلغه أحوالنا[٢].

وهو هنا يتحدث إلى البسطامي بألفاظ غامضة رمزية اصطلح عليها الصوفية للتعبير عن أحوالهم ومقاماتهم، وذلك سترا لحالهم وضنا بعلومهم على غير أهلها، وإن كان من الواضح أنه يعني " بالنوم " الغفلة عن الله و "بالقافلة التي جازت " العمر الذي انقضى أغلبه في الحياة الدنيا، فهو يطلب من صاحبه ألا يغفل عن الله حتى لا ينتهي العمر وهو في غفلته، فيرد عليه البسطامي بأن الرجل الحق من ينتبه من غفلته إذا غفل قبل رحيل القافلة.

وقد تناول ذو النون في مذهبه الصوفي الحديث عن الرياضات العملية لمجاهدة النفس والتي يصطنعها الصوفية لتهذيب نفوسهم فحدثنا عن العزلة – والخلوة – والذكر والسماع والصمت وله حديث تأول فيه رياضة الحج وسنتحدث عن كل منها كما تبنينا عند شيخنا.

---

(١) الرسالة القشيرية: جـ ٢، ص ٤٣٩.

(٢) المرجع السابق: نفس الصفحة.

أولاً – العزلة:

في بداية الحديث عن العزلة والخلوة أود أن أوضح الفرق بينهما، فالعزلة يخالف فيها المريد الناس فلا يعتزلهم ببدنه وإنما يكون معهم ببدنه ومع الله بقلبه وروحه فيجالسهم ويتحدث معهم ويؤدي إلى ما يكلف به من أعمال غير أنه في كل ذلك يكون انشغاله الأول بالله وليس بما حوله من الأمور الأخرى. أما الخلوة فهو يختلي بعيدًا عن الناس في خلوة منفردًا فينقطع فيها للتفكر في الله والذكر المستمر وقراءة القرآن والعلوم الشريعة.

قال القشيري: الخلوة صفة أهل الصفوة والعزلة من إمارات الوصلة، ولا بد للمريد في ابتداء أمره من العزلة عن أبناء جنسه ثم في نهايته في الخلوة لتحققه بأنسه. ومن حق المتعبد إذا آثر العزلة، أن يعتقد باعتزاله عن الخلق سلامة الناس من شره ولا يقصد سلامته من شرهم[1] وهذا إمعانا من المريد في التواضع.

والمريد في بداية الطريق يصطنع العزلة ويبقى مخالطًا للناس غير أنه لا ينشغل بما هم منشغلون به من الاهتمامات الدنيوية من أمور الحياة المختلفة ومشكلاتها، وإنما هو في عزلته قد قصر اهتمامه في التقرب إلى الله وذكره والتفكر فيه في سره، فهو وحده ما يرد على خاطره دون سواه، ثم ما يلبث المريد أن يجد نفسه في حاجة إلى الاختلاء بعيدًا عن الخلق، فيصطنع الخلوة وفيها يقضي مدة من الزمن قد تطول أو تقصر بحسب ما يرى هو بعيدا عن أبناء جنسه، يتفرغ فيها للتعبد والذكر والتأمل وتحصيل العلوم الشريعة والتهجد بالليل دون أن يزعجه أحد حتى يشعر بأن الله وحده قد أصبح مهيمن على قلبه وصار موضع تفكيره وانشغاله، وهو في خلوته يتحقق بالأنس به في وحدته ويظل بها حتى شعر بصفاء قلبه ونقاء نفسه وشدة قربه من ربه وإنه لو عاد إلى مخالطة الناس فإن ذلك لن يشغله عن الله فقد أخذ جرعة كافية في خلوته من كأس المحبة فذاق حلاوة القرب ولذة الأنس بالله وسعادة الاتصال مما يقوى به على ممارسة حياته العادية

---

(١) ابن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، ل ٤٤.

بين أقرانه متحليًا بأخلاق وآداب الصوفية دون أن يخشى تحول قلبه عن الله والانشغال بما سواه من الأغيار أو الأمور الفانية.

ويذهب شيخنا المصري إلى أن العزلة تكون صحيحة إذا قوى صاحبها على عزلة نفسه عن الانشغال بما سوى الله، وهي أيضًا عنده تعني اعتزال الخصال المذمومة وأن يكون المريد خاليا عن جميع الأذكار إلى ذكر الله وأن يجلو سره لله فلا يتفكر إلا فيه ولا يأنس إلا به ولا يتقرب إلا له ويقول ذي النون: " متى تصح العزلة؟ فقال: إذا قويت على عزل نفسك "[١].

ثانياً – الخلوة:

يرى ذو النون أن حب الخلوة عمود الإخلاص لله تعالى إذا تعلق به السالك صار من الواصلين إلى الحضرة الإلهية، وصار من الصديقين، فعلى المريد بين الحين والآخر أن يختلي بنفسه بعيدًا عن مشاكل الدنيا، وأن يكون محبا للوحدة فإذا خلص من التعلق بالأغيار ومن التعلق بالدنيا فعليه أن يخلص العبادة لله وحده وأن يركز تفكيره فيه دائمًا وأن يكون رضاه والتقرب إليه أكبر همه، وطاعته هي أمله الذي يسعى إلى تحقيقه، فإذا خلى بنفسه لا يرى سوى الله، وإذا لم ير سواه فلا ينشغل إلا به ولا يحركه إلا حكمه وقال ذو النون في ذلك: " لم أرى شيئًا أبعث على طلب الإخلاص من الوحدة، لأنه – أي المريد – إذا خلا لم ير غير الله، فإذا لم يرى غير الله، لم يحركه إلى حكم الله، ومن أحب الخلوة فقد تعلم بعمود الإخلاص واستمسك بركن كبير من أركان الصدق"[٢].

وعلى من يصطنع العزلة والخلوة ألا يعتقد في نفسه أنه خير من الناس الذين اعتزلهم بل عليهم أن يعتقد أن في عزلته سلامة الناس من شره وقال ذو النون: " ليس من احتجب عن الخلق بالخلوة كمن احتجب عنهم بالله"[٣]. وهذا يعني أن الخلوة

---

(١) الرسالة القشيرية: مطبعة صبيح، ص ٥١.

(٢) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري، ل ٦١.

(٣) السهرودي: عوارف المعارف على هامش إحياء علوم الدين، للغزالي، جـ ١، ص ٣٠٥.

ليست مطلوبة في حد ذاتها وإنما هي وسيلة لتصفية القلب وذكر الله، وهذا يقودنا إلى الحديث عن رياضة عملية أخرى لتهذيب الأخلاق وترقيق القلب وهي رياضة الذكر.

ثالثاً – الذكر:

الذكر من الرياضات العملية التي حث الله سبحانه المؤمنين عليها في مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾﴾ (١).

ورياضة الذكر من أهم الرياضات التي يصطنعها الصافية للوصول إلى الوجد والفناء وقد يكون الذكر في الجماعة وقد يكون منفردا.

وللذكر عبارات خاصة مثل " الله " أو " لا إله إلا الله " أو " سبحان الله " أو " هو الله" أو غيرها من عبارات الذكر وعلى الذاكر أن يكون متطهر أو يجلس متقبلا القبلة. ويردد لفظا من ألفاظ الذكر السابقة ويظل يذكر بلسانه ويحصر تفكيره في الله ويطرد من خاطره كل ما سواه من الخواطر التي تشغله عن الذكر ثم مع استمرار الذكر يسكت اللسان ويبقى ذكر القلب، ولا يزال الذكر في تفكره في الله حتى يفنى عما حوله ثم يفنى عن نفسه ويبقى بالله. وفي تلك اللحظات يفيض الله على قلبه المعارف النورانية الوهبية.

يقول السهروردي البغدادي: " الذكر على أربعة أقسام: ذكر اللسان – وذكر القلب – وذكر السر وذكر الروح، فإذا صح ذكر الروح سكت السر والقلب واللسان عن الذكر. وكذلك ذكر المشاهدة، وإذا صح ذكر السر سكت القلب واللسان عن الذكر. وذلك ذكر الهيبة، وإذا صح ذكر القلب، فتر اللسان عن الذكر وذلك ذكر الآلاء والنعماء. وإذا غفل القلب عن الذكر أقبل اللسان على الذكر، وذلك ذكر العادة(٢).

وحقيقة الذكر عند شيخنا هي غيبة الذاكر عن الذكر، فأعلى درجات الذكر هي التي يفنى فيها الذاكر عن ذكره فيسكت اللسان ويبقى ذكر الروح ويفنى الذاكر عما حوله وعن نفسه ويبقى الله.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٤١.

(٢) ابن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، ل ٤٦.

ويقول ذو النون: " الذكر هو غيبة الذاكر عن الذكر"[١]. فأفة الذكر أن يشعر الذاكر أنه يذكر. فمن ذكر الهمزة ذكرا على الحقيقة نسى في جانب ذكره كل شيء ولذا يقول السهروردي: " ولكل واحد من أنواع الأذكار عندهم (أي الصوفية) آفة. فآفة ذكر الروح اطلاع السر عليه وآفة ذكر السر اطلاع النفس عليه، وآفة ذكر النفس رؤية ذلك وتعظيمه أو طلب ثوابه أو ظن إنه يصل شيء من المقامات. وأقل الناس قيمة عندهم من يريد إظهار وسر هذا الأصل الذي بنوا عليه، أن ذكر الروح، ذكر الذات، وذكر السر، ذكر الصفات وذكر القلب من الآلاء وذكر أثر الصفات، وذكر النفس متعرض للعلات[٢].

ولا يعني الذكر عند صوفينا أن الذاكر كان غافلا عن الله ثم تذكره، وإنما لسان الصوفي قد اعتاد على ذكر الله مع حضوره سبحانه وتعالى دائمًا في قبه.

وقد أنشد ذو النون:

لا لأَنـــي أَنســـاكَ أُكْثـــرُ ذِكْـــرا ك ولـــكنْ بِـــذاكَ يَجْـرِي لِسـانِي[٣]

والذكر عند ذي النون هو سيف المريدين به يقاتلون أعدائهم، وبه يدفعون الآفات وهو يفضي الذاكرين إلى الفناء والاتصال الروحي بالله سبحانه ويثمر المعرفة الذوقية.

والمريد الصادق عند شيخنا إذا ذكر الله ذكرًا كثيرًا وصدق سعيه تجلى الله في قلبه وحلا ذكره في لسان الذاكرين وشغلهم به تعالى عن كل شيء وأحبوه أكثر من الأهل والمال ويقول ذو النون: " إن المريد إذا صدق سعيه بينه وبين الله تجلى في صدره وحلى ذكره في أفواه المريدين وشغلهم به شغل القلب على جميع الأشغال وحبهم له يحول بين الأهل والمال.

---

(١) الرسالة القشيرية: جـ ٢، ص ٤٦٩.

(٢) ابن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، ل ١٠٩.

(٣) المرجع السابق: نفس اللوحة.

رابعاً – السماع:

السماع عند ذي النون وغيره من الصوفية رياضة من الرياضات العملية التي ترقي القلب وتبعث على الوجد وقد تؤدي بالسامع إلى الفناء، وهو يستند على أية مثل قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ﴾ (١).

وقد عرف ذو النون السماع بقوله: " السماع وارد حق يزع القلب (أي يحركه) إلى الحق، فمن أصغى إليه بحث تحقق. ومن أصغى إليه بنفس تزندق "(٢).

والسماع هو سماع القرآن الكريم وهو عنده وعند الصوفية جميعًا أعلى أنواع السماع فهو كلام الله رب العالمين الذي لا يدانيه كلام، وسماع الأشعار والإنشاد الديني وغيره من الأقوال التي تحرك قلب السامع وتؤثر فيه فيسقط ما يسمعه من المعاني على ما في نفسه فإن كان في نفسه هوى وشهوة (دنياوية) آثارها السماع وإن كان قلبه عامرًا بحب الله آثار السماع فيه هذا الحب. ولذا قال ذو النون: " السماع يزعج القلب وأن من أصغى إليه بحق تحقق وأن من أصغى إليه بحظوظ النفس وحب ما سوى الله تزندق "(٣).

وقد حكى أحد الصوفية المعاصرين لذي النون قال: "لما دخل ذو النون المصري بغداد اجتمع عيه الصوفية ومعهم قوال، فاستأذنوه أن يقول بين يديه شيئًا فأذن له، فأنشد القوال:

صَغيرُ هَواكَ عَذَّبَني فَكَيفَ بِهِ إِذا اِحتَنَكا

وَأَنتَ جَمَعتَ مِن قَلبي هَوىً قَد كانَ مُشتَرِكا

فتواجد ذو النون وسقط فانشج رأسه وقطر منه دم غير أنه لا يسقط على الأرض، فقام شاب يتواجد فقال له ذو النون اتق الذي يراك حين تقوم، فقعد الشاب، وكان

---

(١) سورة الزمر: الآيات ١٧ – ١٨.

(٢) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري، ل ١٠٩.

(٣) المرجع السابق: نفس اللوحة.

جلوسه لموضع علمه أنه غير كامل الحال، غير صالح للقيام متواجدا، فلا يصح أن يقوم أحدهم من غير تدبر ولا علم في قيامه، وذلك إذا سمع إيقاعا موزونا فيتحرك بالطبع الموزون للصوت الموزون وينسبل حجاب نفسه المنبسط بانبساط الطبع على وجه القلب، ويستفزه النشاط المنبعث من الطبع، فيقوم يرقص موزونا ممزوجا بتصنع وهو محرم عند أهل الحق[١].

والصوفي الصادق عندما يسمع آيات الذكر الحكيم أو إنشاد القوالين فإنه لصدق مشاعره ورقه قلبه ونقاء سريرته ولشدة قربه من الله ينصت إليها في تفكر وتدبر. فتثير قلبه مشاعر الحب والشوق الكامن لله فيستغرقه الوجد فيفنى عما حوله ويفنى عما يسمع ويبقى بالله فتحدث له حالة من الفناء والاتصال الروحي. وقد يأتي السامع لشدة انفعاله وقوة وجده وحركة أو يطلق صوتا. وإذا كان صادق الحال فإن كل ما يصدر عنه يكون دون تعمد منه ولا إرادة. أما إذا كان مدعيا أو منافقا فإنه يتكلف الحركات.

وذكر الله بالقلب والتفكر فيه عنده صوفينا هو مفتاح العبادة فإذا تأمل في بديع صنع الله وعظمة خلقه للكون وتنسيقه له وتفكر في نعم الله على مخلوقاته والخراج له ساجدًا إجلالاً وتكبيرًا وتعظيمًا وشكرًا. ويقول ذو النون: " مفتاح العبادة الفكرة "[٢]. والسماع يبعث على التفكر في الله، ويقول: " من يتبع الحق في هذا السماع يحصل له الكشف على حين أن من يقع له الحجاب يعمد إلى التأويل"[٣].

(١) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، ل ١٠٩.

(٢) نفس المرجع السابق.

(٣) نفس المرجع السابق.

خامساً – الصمت:

يعتبر ذو النون الصمت من الرياضات العملية التي يصطنعها سالك الطريق الصوفي لتهذيب نفسه ويعطيه فرصة كاملة للتأمل والتفكر في الله كما أنه يكف لسانه عما سوى الله ويقول ذو النون في أهمية الصمت: " إذا سمعنا شابا يتكلم في المجلس يأسنا من خبره"[١].

ويصف حال الصوفي الملتزم بقوله: " إن لله عبادا... تبلدوا من غير وعن أبي سعيد ولا بكم وأنهم هم البلغاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله"[٢]. فرياضة الصمت لا تقتصر على المريدين المبتدئين فقط بل يصطنها الصوفية العارفين الواصلين إلى الحضرة الإلهية أيضًا فيصمتوا وهم البلغاء الفصحاء حتى يتلقوا عن الحق سبحانه. كما يشير ذو النون إلى رياضات عملية أخرى كالسهر والصوم والجوع وغيرها من الرياضات التي يصطنعها الصوفية لتضعف بشريتهم وتقوى روحانيتهم ويكونوا أهلا للاتصال الروحي بالله.

سادساً – الحج:

تناول ذو النون رياضة الحج بالتحليل الطريق لمناسكه فكشف فيه كما يقول المرحوم الدكتور محمد مصطفى حلي عن معاني تلك الرياضة العملية وأولها تأويلا أبان عن آثارها الروحية في حياة الذين يؤدون المناسك سواء في علاقاتهم بربهم أو بأنفسهم أو بأشباههم[٣]. فقد أول ذو النون الوقوف بالجبل لا بالكعبة بأن ذلك إنما كان لأن الكعبة بيت الله والجبل باب الله. وإن الله ليوقف القاصدين إليه والوافدين عليه بالباب يتضرعون. ويتأول ويعلل الوقوف بالمشعر الحرام. وكيف صار بالحرام. وذلك بأن الله لما أذن للوافدين عليه بالدخول إليه أوقفهم بالحجاب الثاني وهو المزدلفة. ولما طال تضرعهم آمرهم بتقديم قربانهم، وكان هذا القربان تطهيرا لهم من ذنوبهم والتي

---

(١) المرجع السابق: ل ١١٠.

(٢) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، ل ١١٠.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية: تعليق على مادة ذي النون، جـ ٤، ص ٤٢٦.

كانت لهم حجابا من دون الله. وأذن الله لهم بالزيارة على طهارة، وأما أن الصوم مكروه أيام التشريق فذلك ما يأوله ذو النون ويعلله بأنه راجع إلى أن القوم إنما زاروا الله وإنهم في ضيافته، ولا ينبغي للضيف أن يصوم عند من أضافه، ويعلل ذو النون التعلق بأستار الكعبة فيكشف عن المعنى الذي ينطوي عليه هذا التعلق فيرى أن مثل الرجل وقد تعلق بأستار الكعبة كمثل الرجل وقد كان بينه والمسلمين أخيه جناية فتعلق بثوبه واستجدى له وتضرع إليه ليهب له جرمه وجنايته[1].

(١) الرسالة القشيرية: مطبعة صبيح، ص ٣٢.

المقامات والأحوال
عند ذي النون المصري

اتضح لنا مما سبق أن الرياضات العملية تلعب دورًا هامًا في إثارة الوجد وترقيق القلب وتصل بالسالكين طريق الصوفية إلى حال الفناء كذلك أن الرياضات الروحية تعدل من سلوك المريد وتهذبه وتصل به إلى أعلى مستويات الكمال الأخلاقي. وتصفي نفسه من الأخلاق الذميمة، كالحقد، الحسد، الغيرة، الكراهية، الجشع، عدم الرضا، قلة الحلم وإنكار نعم الله، وغيرها من الصفات التي يجاهد المريد نفسه للتخلص منها والتحلي بإضاضها؛ ولذا قيل: التصوف تخليه وتحليه، أي تخلية القب والنفس من الأخلاق الذميمة وأدران الشهوة والهوى، وتحليته بحب الله والأخلاق الحميدة.

وقد كان لصوفينا المصري الفضل في وضع أسس التصوف النظري وكان من أوائل الصوفية الذين تكلموا في مصر في ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية كما سبق أن أشرنا، وقبل التعرف على تصنيفه للمقامات يجدر بنا التفرقة بين المقام والحال كما جاء في الرسالة القشيرية: فالمقام هو موضع إقامة السالك فهو يتصف به على الدوام ويصل إليه بالاجتهاد والإرادة ومقاومة هوى النفس ومحاولته المستمرة للوصول بها إلى درجة الكمال عن طريق الرياضات العملية كالصوم والذكر والصلاة والسماع والعزلة والخلوة والسهر والصمت وغيرها وكلما تحقق السالك بأحد المقامات سعى إلى التحقق بالمقام الذي يليه، ويختلف عدد المقامات وترتيبها من صوفي إلى آخر ومن أمثلة المقامات، التوبة، الصدق، الرضا، الزهد والمحاسبة وغيرها. أما الحال عند الصوفية فهو معنى يرد على قلب السالك من غير تعمد ولا اجتلاب ولا اكتساب من طريق أو حزن أو قبض أو بسط أو شوق أو هيبة أو فناء. فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب وصاحب المقام ممكن في مقامه وصاحب الحال مترق عن حاله[١].

---

(١) نفس المرجع السابق.

من ذلك يتضح أن الفرق بين الحال والمقام أن المقام يتحقق به السالك بكثرة تعبده وبإرادته أما الحال فهو موهبة من الله تلد على قلب السالك من غير التعمد منه ولا اجتهاد. كما أن المقامات دائمة بينما الأحوال زائلة.

وهناك نص لذي النون نستطيع أن نستشف منه ترتيب المقامات يقول فيه: "إن لله عبادًا نصبوا أشجار الخطايا نصب روامق القلوب وسقوها بماء التوبة فأثمرت ندما وحزنا فجنوا بغير جنون، وتبلدوا من غير وعن أبي سعيد ولا بكم وإنهم هم البلغاء والفصحاء العارفون بالله ورسوله. ثم شربوا بكأس الصفاء وورثوا الصبر على طول البلاء ثم تولهت قلوبهم في الملكوت وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت واستظلوا تحت رواق الندم وقرأوا صحيفة الخطايا فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا ال علو الزهد بسلم الورع. فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا وأستلانوا خشونة الضجع حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة وسرحت أرواحهم في العلا حتى أناخوا في رياض النعيم وخاضوا في بحر الحياة وردموا خنادق الجزع وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا بثناء العلم واستقوا من غدير الحكمة وركبوا سفينة الفطنة وأقلعوا برياح النجاة في بحر السلامة حتى وصلوا إلى رياض الراحة ومعدن العزة والكرامة"[1].

ويمكن أن نتبين من هذا النص المقامات التالية:

مقام التوبة – مقام الصدق – مقام الإخلاص – مقام الصبر – مقام التفكر والتأمل – مقام اليقين – مقام الخوف والرجاء – مقام العبودية – مقام الحب والعشق – مقام الزهد – مقام التواضع – مقام الرضا – مقام التوكل – مقام المعرفة.

ومن الأحوال:

حال الأنس، وحال الفناء والاتصال.

---

(١) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، ل ١٠٠.

١ - مقام التوبة:

يعتبر صوفينا التوبة هي أول مقامات الطريق الصوفي ويحدثنا عن نوعين من التوبة:

- توبة العوام: وتكون من الذنوب والمعاصي وهي للمريد في بداية الطريق.
- توبة الخواص وتكون من الغفلة عن الله والانشغال عنه بما سواه ويقول ذو النون: "توبة العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة"(١).

والتوبة من الغفلة قد حث الله عليها في مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ (٢). والتوبة من الغفلة حث الله عليها عباده المخلصين في مثل قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾(٣). وحتى تصح التوبة لا بد لصاحبها من ثلاثة أشياء فيما يرى ذو النون: الندم على ما عمل، ترك تلك المخالفات التي تغضب الله، والعزم على ألا يعود على مثل ما ارتكب من المعاصي(٤). ويقول صوفينا في ثمرة التوبة: "إن لله عبادًا نصبوا أشجار الخطايا أشجار نصب روامق القلوب وسقوها بماء التوبة فأثمرت ندمًا وحزنًا"(٥).

فالمريدون الذين وقفوا على خطاياهم وانتبهوا إلى ما عملوه من ذنوب وما كان فيه من غفلة عن الله فعزموا على التوبة الصادقة وترك كل ما يبعدهم عن الله وشعروا بالندم والحزن فإنهم يعزمون على ألا يعودوا مرة ثانية إلى مخالفة الله أو الغفلة عنه، وهذا يشبه ما قاله الغزالي عن التوبة في كتابه " إحياء علوم الدين " حيث قال: "اعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة: علم، حال، فعل؛ فالعلم الأول والحال الثاني والفعل الثالث... أما العلم فهو معرفة عظم الذنوب وكونها حجبا بين العبد وربه فإذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألم

---

(١) المرجع السابق: ل ١٠١.

(٢) سورة هود: الآية ٩٠.

(٣) سورة النور: الآية ٣١.

(٤) محيي الدين بن عربي: مرجع سبق ذكره.

(٥) المرجع السابق: ل ١٠٠ ظ.

القلب بسبب فوات المحبوب، فإن القلب كلما شعر بفوات محبوبه تألم فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت فيسمى ذلك ندما فإذا غلب هذا الألم على قلب واستولى إن انبعث في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصدا إلى فعل له تعلق بالحال، وبالماضي، والاستقبال، أما تعلقه بالحال فبالترك للذنوب التي كانت ملابسة، وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنوب المفوتة للمحبوب إلى آخر العمر. وأما بالماضي فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء"[1].

وعلى السالك الذي تحقق بمقام التوبة أن يتحقق بعد ذلك بمقام الصدق.

(١) إحياء علوم الدين، للغزالي، جـ ٤، ص ٣.

٢ - مقام الصدق:

يعتبر الصدق هو ثاني المقامات التي يجب أن يتحقق بها المريد، وهو يستند على مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ (١). وهو ضامن لصحة التوبة. والصدق هو رأس مال المريد وفيه صلاح أمره، وهو سلاح المؤمن الذي عليه أن يستلح به حتى تكتب له النجاة دائمًا، وهو سيف الله في أرضه الذي يقطع بين الحق والباطل والشك واليقين، ويقول ذو النون في الصدق: " الصدق سيف الله في أرضه ما وضع على شيء إلا قطعه"(٢).

والمريد الصادق عند شيخنا هو من يكون صادقا مع ربه فلا يدع من المقامات والأحوال ما ليس له ولا يقول بلسانه ما ليس بقلبه أو يدعي المعرفة بالله أو الزهد، ويكون صادقا مع نفسه، وصادقا مع غيره، ويقول ذو النون: "وإياك أن تكون بالمعرفة مدعيًا، أو تكون بالزهد محترفًا، اوت كون بالعبارة متعلقًا"(٣).

والصدق عند ذو النون هو الحقيقة الموصلة للحق فالله هو الحق وقوله الحق ولا يتيسر للسالك الوصول إليه إلا بالحق والصدق وإلا فهو محجوب عن مشاهدته، ولا يجوز للمدعين الكذب على الله لأنه سبحانه شاهدا عليهم، واعلم بحالهم، وكاشفا أسرارهم، ويقول شيخنا: "كل مدع محجوب بدعواه عن شهود الحق لأن الحق شاهدا لأهل الحق... لأن الحق هو الحق. وقوله الحق ولا يحتاج أن يدعي إذا كان الحق شاهدا له... وأما إذا كان غائبا فحينئذ يدعي، وإنما تقع الدعوى للمحجوبين"(٤).

وإذا تحقق المريد بمقام الصدق عليه أن يكون مخلصًا في علاقته بالله ويخلص في صدقه فيعمل على التحقق بمقام الإخلاص.

---

(١) سورة التوبة: الآية ١١٩.

(٢) السلمي: الطبقات ص ١٠.

وانظر أيضًا: الرسالة القشيرية: جـ ٢، ص ٤٥٢.

(٣) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، ل ١١١.

(٤) الرسالة القشيرية: تحقيق د. عبد الحليم محمود – ومحمود الشريق، جـ ٢، ص ٤٥٢.

٣ - مقام الإخلاص:

يربط شيخنا بين مقام الصدق ومقام الإخلاص فيذهب إلى أن الصدق لا يتم إلا بالإخلاص وأن الإخلاص لا يتم إلا بالصدق فعلى المريد الصادق في توبته أن يكون مخلصا له ويصبر على إخلاصه ويداوم على التحقق بالصدق، ويقول ذو النون في ذلك: "الإخلاص لا يتم إلا بالصدق فيه، والصبر عليه، والصدق لا يتم إلا بالإخلاص فيه والمداومة عليه"(١).

ومقام الإخلاص يقوم على آية مثل قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ (٢)، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ (٣).

وعلامة تحقق المريد بمقام الإخلاص عند شيخنا ثلاثة هي: استواء المدح والذم من العامة – نسيان رؤية الأعمال في الأعمال – ونسيان اقتضاء ثواب العمل في الآخرة.

فالمريد الذي تحقق بمقام الإخلاص لا يغضبه ذم الناس له ولا يفرحه مدحهم فالناس لا يحكمون إلا بالظاهر بينما الحق سبحانه يحكم بما في الباطن، وهو وحده المطلع على ما في قلبه وسريرته طالما تحقق بالإخلاص وصدق في إخلاصه لله، كما أن المتحقق بمقام الإخلاص إذا فعل خيرًا أو سلك سلوكًا نبيلاً فإنه لا ينظر إلى فعله على أنه عمل عظيم وإنما هو يعمل الخير ولا يرى ذلك في أعماله حتى لا يدخله العجب بنفسه وكذلك فإن المتحقق بمقام الإخلاص لا يعمل العبادات ابتغاء الأجر والثواب فيكون كما قالت رابعة العدوية: "كالأجير السوء" وإنما هو ينسى اقتضاء ثواب العمل في الآخرة فيعمل الخير لذاته.

ولا ريب أن من أراد أن يتقرب إلى الله ويحظى برضاه وحبه يجب أن يتحلى بالصدق والإخلاص وإلا فهو مدع ومنافق لا تصح توبته وهو بذلك يكون محجوب عن الله، ويتفق قول ذي النون مع الغزالي في أن الإخلاص الصادق هو عدم رؤية المريد

---

(١) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، ل ١١١.

(٢) سورة الزمر: الآية ٣.

(٣) سورة البينة: الآية ٥.

للإخلاص فإنه إذا شاهد إخلاصه فقد احتاج إخلاص إلى إخلاص وأن السالك يجب ألا يرى فعله أو يلتفت إليه ينفق أيضًا مع ما ذهب إليه الغزالي من أن الإخلاص هو تجريد قصد التقرب إلى الله تعالى من الشوائب[١] وعلى السالك بعد ذلك أن يتحقق بمقام الصبر.

(١) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، ل ١١٢.

٤ - مقام الصبر:

يعتبر صوفينا مقام الصبر من المقامات التي يجب أن يتحقق بها السالك للطريق الصوفي منذ البداية وهو قائم على مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [١]. وحقيقة الصبر عند ذي النون في قدرة السالك على البعد عن المخالفات فالمريد الذي يجاهد نفسه ليزكي الخير فيها ويورثها جميل الصفات عليه بالبعد عن المعاصي والمخالفات ويصبر على ذلك، كما أن للصبر عنده معنى آخر وهو السكون عندما تحل بالسالك البلية أو مكروه، كما أن الصبر يظهر في التحلي بمظهر المتنعم بنعيم الله الميسور الحال في وقت عوزه وشدة فقره؛ فالسالك المتحقق بمقام الصبر يبدو على مظهره الرضا والسعادة والغنى مع قلة موارده وضيق رزقه ويقول ذو النون: " الصبر هو التباعد عن المخالفات، والسكون عند تجريح البلية، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة "[٢].

ومن أعلام الحلم عند شيخنا ثلاثة: قلة الغضب عند مخالفة الرأي، والاحتمال عند الورى إخباتًا للرب ونسيان إساءة المسيء عفوًا عنه واتساعًا عليه[٣]، ثم على السالك بعد ذلك أن يديم التفكر في الله.

---

(١) سورة النحل: الآية ١٢٧.

(٢) الطوسي: اللمع، ص ٧٥.

(٣) أبو نعيم الأصفهاني: حلية الأولياء، جـ ٩، ص ٣٨٢.

٥ - مقام التفكر والتأمل:

يرى ذو النون أن التفكر في الله والتأمل في ملكوته وعظيم قدرته في خلق السموات والأرض هو مفتاح العبادة كما أن السالك إذا تفكر في نعم الله الخراج ساجدا له إجلالا وإكبارا ويقول ذو النون: "مفتاح العبادة الفكرة"[١].

ولا شك أن المتفكر في الله الذي لا يشغل فكره بسواه ولا يرجو إلا رضاه كلما زاد تفكره كلما شعر بنقصه أمام كمال الله وبضعفه أمام قوته، وبجهله أمام علمه، وبخسته أمام عظمته سبحانه فيخشى من جبروته.

وقد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبر في مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾[٢] وإذا تعلق السالك في التفكر في الله تحقق بحال اليقين.

---

(١) السلمي: طبقات الصوفية، ١١.

وانظر: الطوسي، اللمع، ص ٧٦.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٩١.

٦ - مقام اليقين:

يتحقق السالك بمقام اليقين عملا بقوله تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾[١]. واليقين هو العلم الذي لا يداخله صاحبه ريب على مطلق العرف، ولا يطلق في وصف الحق سبحانه لعدم التوقف، وعلم اليقين على موجب اصطلاح الصوفية ما كان بشرط البرهان، وعين اليقين ما كان بحكم البيان، وحق ايقين ما كان بنعت العيان، فعلم اليقين لأرباب القلوب وعين اليقين لأصحاب العلوم، وحق اليقين لأصحاب المعارف[٢].

واليقين عند صوفينا يكون نتيجة التفكر والتأمل في الله وهو نور إذا وصل إلى القلب أزال عنه كل ريب ويمتلئ القلب به شكرًا لله وخوفًا من عباده ورجاء في ثوابه وهو عند صوفينا باعث على الزهد في الدنيا والبعد عما سوى الله، والزهد بدوره يؤدي إلى الحكمة في القول والفعل والحكمة تورث النظر في عواقب الأمور، وتؤدي إلى بعد النظر، ويقول في ذلك: "اليقين داع إلى قصر الأمل، وقصر الأمل يدعو إلى الزهد، والزهد يورث الحكمة والحكمة تورث بعد النظر في العواقب[٣]. وفي رأي شيخنا أن اليقين إذا صح في القلب، صح في القلب الخوف من الله، فمن لا يقين عنده لا خوف عنده، ويقول: "إذا صح اليقين في القلب صح الخوف فيه"[٤]. أي إذا لم يكن الإنسان مؤمنا ومتيقنا من وجود الله تعالى فلن يخشاه أو يخافه.

وما قاله ذو النون يشبه ما قاله الغزالي من: "أن الخوف ثمرة العلم اليقين بالله تعالى"[٥] ويذهب ذو النون إلى أن علامات اليقين ثلاثة: قلة مخالطته (أي المريد) للناس في العشرة. وترك المدح لهم في العطية والتنزه عن ذمهم عند المدح[٦].

---

(١) سورة الحجر: الآية ٩٩.

(٢) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، ل ١١٢.

(٣) الرسالة القشيرية: مطبعة صبيح، ص ٤٤.

(٤) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، ل ١١٣.

(٥) الغزالي: إحياء علوم الدين، جـ ٢، ص ١٥٧.

(٦) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، ل ١١٣.

وعنده أيضًا أن أعلام يقين اليقين ثلاثة: النظر إلى الله تعالى في كل شيء والرجوع إليه في كل أمر، والاستعانة به في كل حال[١] وإذا أيقن السالك من وجود الله فإنه يخشاه ويرجو عفوه، فعليه بعد ذلك أن يتحقق بمقام الخوف والرجاء.

(١) نفس المرجع السابق.

٧ - مقام الخوف والرجاء:

ومقام الخوف يقوم على مثل قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ﴾ [١]. ويذهب ذو النون إلى أن الخوف رقيب العمل ومن خشى ربه راقبه في كل أعماله وأقواله مخافة أن يقع في معصية تغضب ربه؛ ولذلك فمن يتحقق بمقام الخوف من الله يكون حريصا كل الحرص على مرضاة الله في جميع ما يصدر عنه، رجاء رحمة في المحن وغفرانه للذنوب والأمل في عفوه ورضاه ويقول شيخنا: " الخوف رقيب العمل والرجاء شفيع المحن"[٢]. فالرجاء "هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده" كما يقول الغزالي الذي يرى أن العمل على الرجال أعلى منه على الخوف لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبهم له، والحب يغلب الرجاء"[٣].

وإلى مثل هذا ذهب صوفينا من قبل حينما قال: "لو أن ذرة من الاشتياق، أثقل من الجوارح من قنطار من الخوف، لأن الشوق يخرج من الأبدان خفي الطاعات"[٤]. فصوفينا يرى أن ذرة من أحب الله والشوق إليه تعمل عمليها في جوارح المحب المشتاق فيراقب الله في كل حال لأن الشوق يخرج من الأبدان ما خفى من الطاعات مما لا يقدر الخوف على إخراجه.

ويذهب شيخنا إلى أن العابدين الخائفين يدركون حق الإدراك أن لله حقوق أثقل من أن يقوم بها العبد، وله سبحانه نعم لا تحصى ولا تعد وأن عليهم أن يتوبوا إلى الله بكرة وأصيلا ويقول ذو النون: "لله عبادا قطعهم الخوف أن يعرفوا أن حقوق الله أثقل من أن يقوم به العابد. وأن نعم الله أكثر من أن يحصيها العابد ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين"[٥].

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٢٨.

(٢) طبقات السلمي: ص ١١.

(٣) الغزالي: إحياء علوم الدين، جـ ٤، ص ١٤١.

(٤) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، ل ١١٤.

(٥) نفس المرجع السابق.

وقد سئل صوفينا، متى يتيسر على العبد سبيل الخوف؟ فقال: إذا انزل نفسه منزلة السقيم يحتمي من كل شيء مخافة السقم[١] وهذا يعني أن العبد يتحقق بالخير إذا أيقن أن مكروها ينتظره أو خشى نفسه أن يكون دوما في منزلة السقم فيحتمي من غضب الله في تجنب المعاصي مخافة طول السقم، وهذا يشبه ما قاله الغزالي من أن الخوف لا يتم إلا بانتظار مكروه أما أن يكون مكروها في ذاته كالنار، وأما أن يكون لأنه يفضي إلى مكروه كما تكره المعاصي لأدائها إلى مكروه في الآخرة[٢].

وللخوف عند شيخنا علامات ثلاثة هي كما يقول: "الورع عن الشبهات بملاحظة الوعيد وحفظ اللسان مراقبة للتعظيم ودواء الكمد إشفاقا من غضب الحليم"[٣].

وكان الحسن البصري (٢١ هـ - ١١٠ هـ) أكثر الزهاد تحققا بمقام الخوف، وكان دائمًا يقول: "من خوفك حتى تلقى إلا من خير ممن أمنك حتى تلقى الخوف"[٤].

وقال ذو النون في الرجاء: "لئن مددت يدي إليك داعيا لطالما كفيتني ساهيا يقطع منك رجائي بما عملت يداي؟ حسبي من سؤالي علمك بحالي"[٥]. وهنا يناجي ذو النون ربه بأنه يطمع في كرمه ويرجو عفوه ومغفرته فإذا مد إليه يده داعيا راجيا وهو سبحانه الكريم الذي طالما تكرم عليه بنعمه وهو غافل عنه فهو لا يقطع الرجاء من الله بما عمل من ذنوب لأنه أعلم بحاله، وإذا تحقق العبد بالخوف من الله فعليه أن يصحح عبوديته لله ويلتزم بمقام العبودية الحقة.

---

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) إحياء علوم الدين، جـ ٤، ص ١٥٥.

(٣) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، ل ١١٤.

(٤) السهرواردي: عوارف المعارف، ص ٩٨.

(٥) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، ل ١١٥.

٨ - مقام العبودية:

يقوم مقام العبودية على آية مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾[١] والعبودية هي جوهر الدين وهي دستور العلاقة بين العبد وربه وهي في رأي الصوفية أتم من العبادة، فأولا عبادة ثم عبودية، ثم عبودة، فالعبادة للعوام من المؤمنين والعبودية للخواص، والعبودة لخلوص الخواص، والعبادة لمن له علم اليقين والعبودية لمن له عين اليقين، والعبودة لمن له حق اليقين، والعبادة لأصحاب المجاهدات والعبودية لأرباب المكابدات، والعبودة صفة أهل المشاهدات، فمن يدخر عنه تعالى نفسه فهو صاحب عبادة ومن لم يضن عليه يقلبه فهو صاحب عبودية، ومن لم يبخل عليه بروحه فهو صاحب عبودة[٢].

ولا ريب أن في عبودية الله منتهى العزة والكرامة ومنتهى الحرية ولذلك قال الإمام القشيري: "الحرية ألا يكون العبد تحت رق المخلوقات ولا يجري عليه سلطان المكونات"[٣]. كما أن ذروة الحرية ألا يخضع الإنسان لشهوات نفسه ويسير عبدا لها، ولذلك قال أبو علي الدقاق: "من دخل الدنيا وهو عنها حر، يرتحل إلى الآخرة وهو عنها حر"[٤].

فحقيقة الحرية في كمال العبودية فإن كان العبد صادقا في عبوديته لله خلص من رق الأغيار وصار من الأحرار ولذلك قال الحسن بن منصور الصوفي: "من أراد الحرية فليصل العبودية"[٥].

---

(١) سورة الحجر: الآية ٩٩.

(٢) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء، جـ ٢، ص ١٢١.

(٣) الرسالة القشيرية: جـ ٢، ص ٤٢٨.

(٤) المرجع السابق: ص ٤٦٠.

(٥) المرجع السابق: ص ٤٦٢.

وحقيقة العبودية عند ذي النون أن يشعر السالك بأنه عبدا لله سيده ومولاه في كل حال وآن فيعرف أنه تعالى رب نعمته ويقول: "العبودية أن تكون أنت عبده في كل حال كما أنه ربك في كل حال"[١]. والسالك المتحقق بالعبودية يستحي من الله وذلك فيجب عليه التحقق بمقام الحياء.

(١) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، ل ١١٥.

٩ - مقام الحياء:

يذهب ذو النون إلى أن العبد الذي يخشى ربه لا بد أن يستحي منه قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾[(١)] وهو يربط بين مقام الخوف من الله ومقام الحياء منه تعالى، فيجعل الخوف في منزلة أقل من منزلة الحياء، فالمريد الذي يترك المعاصي ويتقرب إلى الله بالطاعات والعبادات لتحققه بمقام الخوف، ما يلبث أن يترك ذنوبه حياء من كرم الله، بعد أن تركها خوفا من عقوبته.

ويقول في ذلك: "لولا عبادًا تركوا الذنوب استحياء من كرمه. بعد أن تركوها خوفًا من عقوبته. ولو قال تعالى اعمل ما شئت فلست أخذك بذنب، كان ينبغي أن يزيدك استحياء منه، وتركا لمعصيته إن كنت حرًا كريمًا عبدًا شكورًا، فكيف وقد حذرك!!"[(٢)].

وحقيقة الحياء عند ذي النون شعور قلب السالك بهيبة الله عز وجل مما اقترفه من معاصي سابقة ويقول: " الحياء وجود الهيبة في القلب مع وحشة ما سبق منك إلى ربك"[(٣)]. وقال أيضًا: "الحب ينطق والحياء يسكت، والخوف يقلق"[(٤)].

وذو النون يفرق بين الاستجابات الانفعالية لكل من الحب والحياء والخوف من الله ليرى أن الحب لله الذي تمكن من قلب صاحبه لا بد أن ينطق تعبيرا عن هذا الحب العظيم، أما الذي يسيطر عليه الحياء من الله، فإن الحياء يسكته ويجعله غير قادر على النطق، أما الذي تملك قلبه الخوف من الله فإن القلق يسيطر عليه، وعند شيخنا أعلام الحياء ثلاثة هي: "وجدان الأنس بفقدان الوحشة، والامتلاء من الخلوة بإدمان التفكر،

---

(١) سورة العلق: الآية ١٤.

(٢) السلمي: الطبقات، ص ١١.

وانظر أيضًا: محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري، ل ١١٦.

(٣) نفس المرجع السابق. والرسالة القشيرية: جـ ٢، ص ٤٥٥.

(٤) نفس المرجع السابق.

واستشعار الهيبة بخالص المراقبة"[١] والسالك الذي صحح عبوديته وصار يستحي من ربه عليه وأن يزهد في الدنيا ويقبل على الآخرة.

(١) الأصبهاني: حلية الأولياء، جـ ٩، ص ٣٨٢.

١٠ - مقام الزهد:

يعتبر صوفينا أن الزهد في الدنيا من أهم الصفات التي يجب أن يتحقق بها السالك للطريق الصوفي ففي رأيه أن الإنسان الذي يتجه بكليته إلى الله متقربا إليه بالعبادات والطاعات، لا يتعلق قلبه بزينة الحياة الدنيا وما بها من إغراءات وملذات شاته، إذا قضى الإنسان عمره في تحصيلها فإنه يشقى بها ويسلمه ذلك إلى الانغماس فيها فيصير أسيرا لها وتصرفه عن التفكر في الله والتقرب إليه، وتصبح الدنيا هي جنته بما فيها من النعيم والمتع الزائفة الزائلة، ويرى في التمتع بها لذته الحقيقية وسعادته الكاملة فيسرف في الإقبال عليها.

أما المؤمن فإنه يعتبر الدنيا سجن كبير وهي فرصة يتزود فيها بالأعمال الصالحة والطاعات والعبادات حتى يعد نفسه للنعيم المقيم في الجنة الحقيقية، ويقول ذو النون: "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر"[(١)]. ويقول من أعلام الزهد ثلاثة "قصر الأمل – وحب الفقر – والاستغناء مع الصبر"[(٢)].

ويذهب شيخنا إلى أن الزهد في الدنيا يورث الحكمة والنظر في عواقب الأمور فهو يقول: "الزهد يورث الحكمة، والحكمة تورث النظر في عواقب الأمور"[(٣)].

وحقيقة الزهد عند ذي النون أن يزهد السالك في نفسه أولا فإنه إذا أحب نفسه أدى به ذلك إلى الانغماس في إشباع أهوائها ولذاتها، أما إذا زهد فيها أوصله ذلك إلى الزهد في الدنيا، وقد قال رجل لذي النون: "متى أزهد في الدنيا: "قال إذا زهدت نفسك"[(٤)].

---

(١) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، ل ١٢٠.

(٢) الرسالة القشيرية: مطبعة صبيح، ص ٨٣.

انظر أيضًا: الأصبهاني، حلية الأولياء، جـ ٩، ص ٣٨٢.

(٣) نفس المرجع السابق.

(٤) السلمي: الطبقات، ص ١٠.

وكان صوفينا يرى أن الزهد في زمانه أصبح أمرًا نادرًا ويقول في ذلك: "أدركنا ناس الواحد منهم طالما ازداد علمًا في الدنيا زهدًا وتركًا لها، واليوم يزداد الرجل بعمله حبًا للدنيا وطلبًا لها وكان الرجل ينفق ماله على علمه، واليوم يكسب الرجل بعمله مالاً، وكان يرى على صاحب العلم زيادة في باطنه وظاهره، واليوم يرى على كثير من أهل العلم فساد الباطن والظاهر[1] وعلى السالك الذي زهد في الدنيا واتجه إلى الله أن يتحقق بمحبته.

(١) الرسالة القشيرية: ص ٥٧.

انظر أيضًا: طبقات السلمي، ١١.

١١ - مقام المحبة والعشق:

كان لذي النون نظرية في المحبة فهو يرى أن حبا عظيما متبادلا بين العبد وربه، وقد تحدث ذو النون عن المحبة وكانت رابعة العدوية قد سبقته إلى ذلك، فللمحب الصادق هو من أحب كل شيء يحبه الله، وأبغض كل شيء يبغضه الله. والمحبة هي أيضًا فعل الخير بجميع صوره في كل وقت وفي كل مكان، وهي أيضًا في البعد عن كل ما يشغل السالك عن ربه، ويبعده عن التقرب إليه، والمحبة هي كذلك أخشى السالك إلا الله ولا يخاف في الله لومة لائم، وأن يكون رقيق القلب عطوف على إخوته من المسلمين ولا يتساهل مع الكافرين، وأن يقتدي بالرسول الكريم في قوله وفعله ودينه، وقال شيخنا عندما سئل عن المحبة "أن تحب ما أحب الله، وأن تبغض ما أبغض الله، وتفعل الخير كله، وترفض كل ما يشغل عن الله ولا تخاف في الله لومة لائم، مع العطف للمؤمنين والغلظة على الكافرين وإتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدين"[(١)].

وقد أنشد ذو النون في الحب مناجيًا ربه:

أَمُـوتُ وَمَـا مَاتَـتْ إلِيـكَ صَـبَابَتِى ... وَلاَ قُضِيَتْ مِـنْ صِـدْقِ حُبِّكَ أَوْطَارِى

مُنايَ، المنى كلُّ المنى، أنتَ لي مُنًى ... وأَنْـتَ الغِنـى، كـلُّ الغِنـى، عِنْـد إقتـاري

وأنـتَ مَـدَى سُـؤْلي و غايـةُ رَغْبَتِـي ... ومَوضِـعُ آمـالي ومَكْنُـونُ إضـماري

تَحمَّلَ قلبي في يد المالك ما لا أَبُثُّه ... وَإِنْ طالَ سُقْمِي فيكَ أو طال إِضْراري

وبَـيْنَ ضُـلوعي منـكَ مَالَـكَ قَـدْ بـدا ... ولَـمْ يَبْـدُ باديـه لأهـلٍ و لا جـارِ

وبـي مِنكَ، فـي الأحشاءِ، داء مُخـامِر ... فقـد هَـدَّ مِنِّـي الـركنَ وانْبَـثَّ إسْـراري

أَلَستَ دليلَ الرَّكْب، إِنْ هـمُ تَحَيَّروا ... ومُنْقِذَ من أَشْفي عَلَى جُـرُفٍ هاري؟

أَنَـرتَ الهُـدَى لِلْمُهْتَـدِين و لـم يَكُـنْ ... مِـنَ النّـوُر فـي أيـديهمُ عُشْـرَ مِعْشـار

---

(١) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، ل ١٢٠.

فَنَلْنـــي بعفـــو مِنْـــك، أحيـــا بِقُرْبِـــه أَغِثْنِـي بِيُسْـرٍ منـك، يَطْـرُدُ إعْسـاري[١]

وفي هذه الأبيات يعبر ذو النون عن مدى حبه لله تعالى فهو يرى أن حب الله باقيا في قلبه طوال عمره وحتى بعد مماته فإن هذا الحب الكبير لا يموت ولا ينتهي، وأن الله تعالى هو كل مناه فهو يحبه لذاته وهو سبحانه الغني كل الغنى عن أعماله وتعبده، وهو سبحانه كل مطلبه وموضع آماله، وهو الذي يملك عليه سره، وقد حمل في قلبه حبا يعجز عن بثه أو التعبير عنه مهما طالت لوعته وسقمه، وبين جنباته حبا لا يخفى على الله وإن كان يخفى على الأهل والجار، وحبه تعالى قد استقر في دمه والله ربه دليل لكل محتار ومنقذ كل من ضل عن الطريق وأشرف على الهاوية وقد أنار طريق الهداية للمهتدين الذين لم يكن لديهم من الهدى عشر معشار ما كان عنده ويقول: فنلني بعفوك يا إلهي واغثني بيسر منك ويسر لي أمري.

وللحب عند ذو النون علامات أهمها أن يكون المتحقق بمقام الحب متابعا للرسول صلى الله عليه وسلم ومقتديا به ويقول: " من علامات المحب لله، متابعة حبيب الله صلى الله عليه وسلم في أخلاقه وأفعاله وأمره وسنته"[٢]

وحقيقة المحبة عند ذي النون أن تحب من يحبه الله وتبغض من أبغضه الله وتطلب رضاه وترفض جميع ما يشغلك عنه ولا تخف في الله لومة لائم، بأن تعزل نفسك عن رؤيتها وتدبيرها فإن اشد الحجب رؤية النفس"[٣]. فعلى سالك طريق الصوفية أن يحب في الله ويبغض في الله ويرفض كل ما يشغله عن الله ولا يخشى في الله لوم وأن يسقط تدبير نفسه لأن رؤية تدبير النفس هو أشد الحجب التي تحجب السالك عن حبيبه. وهو في قوله هذا يتفق مع ما نجده عند أبو الحسن الشاذلي (المتوفى سنة ٦٥٦ هـ) حيث قال: "ولم يصل الولي إلى الله ومعه تدبير من تدبيراته أو اختيار من اختياراته"[٤]. وهو

(١) نفس المرجع السابق – طبقات الصوفية: ص ١٠.

(٢) السلمي: طبقات الصوفية، ص ١١ – محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري، ل ١٢١.

(٣) نفس المرجع السابق.

(٤) د. أبو الوفا الغنيمي التفتازاني – ابن عطاء الله السكندري وتصوفه: ط ٢، ص ١٣١.

أيضًا يشبه ما نجده عند ابن عطاء الله السكندري (المتوفى سنة ٧٠٩ هـ) والذي قال: أهل الغفلة والإساءة قد أجابوا الشيطان في الكبائر والمخالفات وإتباع الشهوات فليس للشيطان حاجة أن يدعوهم إلى التدبير ولو دعاهم إليه لاستجابوا بسرعة. فليس هو أقوى أسبابه فيهم إنما يدخل الشيطان بذلك على أهل الطاعة والمتوجهين لعجزه عن أن يدخل من غير ذلك عليهم فرب صاحب ورد عطله عن ورده أو عن الحضور مع الله تعالى فيه هم التدبير والفكرة في مصالح نفسه، ورب ذي ورد استضعفه الشيطان فألقى إليه دسائس التدبير ليعكر عليه صفاء وقته"[١].

وعند شيخنا أن المحب لله يستقل كل ما يقوم به من طاعات وعبادات ويقول: "من أحب الله استقل كل عمل يعمله"[٢] ويقول أيضًا: "لو لزمنا الحياء من الله لذكرنا المحبة، وقد شربنا من كأس الدنيا"[٣]. فهو على شدة زهده يرى إنه يستحي من الله فقد ذكر المحبة مع ما شربه من كأس الدنيا، وهذا لكثرة تواضعه وحيائه من الله.

والمتحققون بمقام المحبة عند شيخنا ليسوا جميعا على درجة واحدة وإنما هو كما قال على أربع طبقات ويقول في ذلك: "المحبون في الدنيا على أربع طبقات، منهم إذا ذكر حبيبهم أن أي يسمع منه أنين الشوق " ومنهم إذا ذكر حبيبه حن (أي شعر بالحنين إليه) ومنهم إذا ذكر حبيبه رن (أي نظر إليه بقلبه وتوجه إليه بسره) ومنهم من ذكر حبيبه جُن[٤] وهذا أعلى درجات المحبة وهو يعني هنا بالجنان الوله والشوق البالغ إلى الله وعشقه.

وقد حذر ذو النون من ادعاء حب الله لأن المحبة مقام شريف طالما ادعاه الخلق بارتكابهم للمخالفات والمعاصي، وأولى بهؤلاء المدعين أن يخشوا الله ويطيعوه وأن يحزنوا على حالهم لأن الحب يجعل قلب صاحبه يفيض تقوى لله ويطبع نفسه على

---

(١) المرجع السابق: ط ٢، ص ١٣٠.

(٢) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، ل ١٢٢.

(٣) عبد الرحمن السلمي: الطبقات الصوفية، ص ١٠.

(٤) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، ل ١٢٢.

النقاء والصفاء وهذا يتضح مما روى عن ذو النون في مجلسه بين أصحابه يتذكرون في المحبة فقال ذو النون: "كفوا عن هذه المسألة لا تسمعها النفوس، وتدعيها ثم أنشد:

الخـــــوف أولـــــى بالمســـــى إذا تألـــــــــه والحـــــــــزن

والحبـــــل يجمـــــل بـــــالتقى وبـــــالتقى مـــــن الـــــدرن[1]

ويتفق ذو النون مع الغزالي في اعتبار المحبة الغاية القصوى من المقامات وأنها أكملها وأعلاها يقول الغزالي: "المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات والذروة العليا من الدرجات فما بعد إدراك المحبة مقام إلا هو مقدمة من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها"[2].

وإذا تحقق السالك بمقام المحبة تواضع لله فعليه أن يتحقق بمقام التواضع.

(١) الرسالة القشيرية: جـ ٢، ص ٦٢٢.

(٢) الغزالي: إحياء علوم الدين، جـ ٤، ص ٢٥٢.

١٢ - مقام التواضع:

يذهب ذو النون إلى أن المريد الصادق لا بد أن يتحقق بالتواضع فمن تواضع لله رفعه إلى أعلى الدرجات وعليه بترك الغرور وأن لا يرى في تعبده وزهده وتقربه إلى الله شيئًا يميزه على غيره من الناس، فلا يعجب بأعماله ولا يتباهى بها حتى لا تكون حسناته سيئات ويقول: "من تزين بعمله كانت حسناته سيئات"(١). ويقول أيضًا: " دوام الفقر إلى الله مع التخليط، أحب إليَّ من دوام الصفاء مع العجب".

وحقيقة التواضع عند شيخنا أن يطلب المريد من ربه الحاجة بلسان الفقر لا بلسان الحكم فإذا كان له عند الله حاجة فيرجوه تعالى في تواضع أن يقضيها له ويقول: "اطلب الحاجة بلسان الفقر لا بلسان الحكم"(٢). وعنده أن من الأسباب الداعية للتواضع أن ينظر الإنسان إلى عظمة ربه فتصفو نفسه وتتواضع إلى جانب سلطان الله وهيبته. فمن نظر إلى الله على إنه خالق نظر إلى نفسه على أنه مخلوق ومن نظر إلى الله على أنه قادر نظر إلى نفسه على أنه عاجز ومن نظر إلى الله على أنه عالم نظر إلى نفسه على أنه جاهل فلذا دخل السالك العجب بنفسه وجب عليه أن يتذكر عظمة الله فيشعره ذلك بضعفه وقلة حيلته ويقول شيخنا: "من أراد التواضع فليوجه نفسه إلى عظمة الله فإنها تذوب وتصفو، ومن نظر إلى سلطان الله ذهب سلطان نفسه لأن النفوس كلها فقيرة عند هيبته"(٣).

وقال تعالى يحث عباده على التواضع: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾(٤).

---

(١) السلمي: الطبقات، ص ١١ – بن عربي: الكوكب الدري، ل ١٢٣ و.

(٢) نفس المرجع السابق.

وانظر: السلمي، الطبقات الصوفية، ص ١٠.

(٣) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، ل ١٢٣.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٤٦.

ويذهب ذو النون إلى أن من علامات الغرور الاعتماد على رحمة الله مع قلة العمل ويقول: "من علامة المغترين اعتمادهم على رحمة الله ومغفرته"[١]. ثم على السالك أن يتحقق بمقام التوكل.

(١) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، ل ١٢٥.

١٣ - مقام التوكل:

يعني التوكل عند شيخنا إسقاط التدبير، بمعنى أن الذي تحقق بالعبودية وصدق ما عاهد الله عليه من التزام طريق الصوفية وتحقق بالتوحيد واليقين، فإنه يترك تدبير نفسه ويتوكل على الله ويفوض إليه أمره ويقول ذو النون في حقيقة التوكل: "التوكل ترك تدبير النفس، والانخلاع عن الحول والقوة"[(١)].

وقد حث الله عباده المؤمنين على التوكل عليه في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [(٢)]. وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[(٣)]. والتوكل يستند أساسا كما هو واضح من الآية على الإيمان اليقيني بالله الواحد الأحد، فإن لم يكن السالك على يقين تام لا يصح توكله، فالإنسان لا يوكل أمره إلا لمن وثق فيه واعتقد اعتقادا تاما في قدرته، ولذا سئل حمدون القصاص الصوفية عن التوكل فقال: "تلك درجة لم أبلغها بعد، وكيف يتكلم في التوكل من لم يصح له حال الإيمان"[(٤)]. ويربط ذو النون بين التوكل والتوحيد فيقول: "التوحيد أن تعلم أن قدرة الله تعالى في الأشياء بلا مزاح، وعلة كل شيء صنعه، ولا علة لصنعه وليس في السموات العلا ولا في الأرضين السفلى مدبر غيره"[(٥)]. فإذا تحقق السلك بالإيمان اليقيني والتوحيد الحق وعلم أن قدرة الله في الأشياء هي قدرة خالصة لا يشاركه فيها سواه وأنه سبحانه عله كل شيء وأنه المدبر الوحيد لأمور السموات والأرض فإنه يسقط تدبيره ويسلم أمره إلى الله ويتوكل عليه، وعليه بعد ذلك أن يحاسب نفسه ويراقب ربه.

---

(١) السلمي: طبقات الصوقية، ص...

(٢) سورة الطلاق: الآية ٣.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٦٠.

(٤) الغزالي: إحياء علوم الدين، جـ ٤، ص ٢٥٥.

(٥) الرسالة القشيرية: مطبعة صبيح، ص ٨٧.

١٤ - مقام المحاسبة والمراقبة:

يستند مقام المحاسبة على آية مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ (١). ويستند مقام المراقبة على قوله تعالى: ﴿وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾ (٢). فالسالك طريق الصوفية عليه بمحاسبة نفسه على كل ما يقوم به من أعمال وأقوال وطاعات، ويراقب نفسه مراقبة شديدة ويعلم أن الله يراقبه في كل حركاته وسكناته وأنه يعلم ما خفي في سره وما ظهر في علنه، فالمراقبة كما يقول الإمام القشيري: " هي علم العبد باطلاع الرب سبحانه وتعالى عليه واستدامته لهذا العلم ومراقبته لربه، وهذا أصل كل خير، ولا يكاد يصل إلى هذه المرتبة إلا بعد فراغه من المحاسبة فإذا حاسب نفسه على ما سلك، وأصلح حاله في الوقت ولازم طريق الحق أحسن بينه وبين الله تعالى مراعاة القلب وراقب الله تعالى في عموم أحواله"(٣).

ويقول ذو النون يا أخي وصيتك بتقوى الله العظيم والمراقبة له حيث لا يراك أحد إلا الله والاستعداد لما ليس لأخيك فيه خجله فاجتهد إلى خلع قناع الغافلين"(٤).

وحقيقة المراقبة عند صوفينا أنها نور ينير سبيل السالك في طريقه إلى الله. ويقول في ذلك: "لا يجد السبيل إلى الله من لم يتأدب بنور المراقبة، ولم يستحق الولاية من لم تكتنفه الكفاية، ولم يرتع في رياض انته من لم يعبر بحار عظمته، ولم يلج باب الوصول من لم يسير إليه على أقدام الهيبة"(٥).

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٤.

(٢) سورة هود: الآية ٩٣.

(٣) الرسالة القشيرية: ص ٧٨.

(٤) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري، ل ١٢٦.

(٥) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، ل ١٢٦.

وعلامة المراقبة عند ذي النون حب وتفضيل ما أحب الله وفضله، وتعظيم ما عظمه، وتصغير ما صغره ويقول في ذلك: "علامة المراقبة إثار ما آثر الله تعالى وتعظيم ما عظم الله تعالى، وتصغير ما صغر الله تعالى"[١].

(١) الرسالة القشيرية: مطبعة صبيح، ص ٨٨.

الأحوال:

تتداخل مع مقامات السلوك عند صوفينا أحوال وهبية وبين الأحوال والمقامات تشابك وتشابه فإذا استقر الحال وثبت صار مقاما وقد عرفنا أن المقامات مكاسب والأحوال موهب وصوفينا يربط بين الحال والجبر وإسقاط التدبير فيقول " لا يكون للإنسان من الأحوال إلا ماي ريد الله له، وليس للإنسان في حاجة إلى أن يعلم ما هو الذي اختاره له إذا كان الله قد يحكم ما هو كائن، وهو المكون للأشياء، وهو الذي يختار للإنسان"(١).

١ - حال الأنس:

يعتبر ذو النون أن حال الأنس ثمرة من ثمرات الحب لله والشوق إليه وهو عنده حالة من الفرح تغمر السالك لقربه من الله ومطالعته الحاضر المكشوف واستنار قلبه بالفيوضات الإلهية التي تشرق على قلبه من لدن الله تعالى، وهو عنده يعني: "صفاء القلب مع الله والتفرد بالله والانقطاع عن كل شيء سواه"(٢).

والمتحقق بحال الأنس فيما يرى ذو النون فإنه يشغر "باستلذاذ الخلوة، واستيحاش الصحبة، واستحلاء الوحدة"(٣). وهذا يشبه ما نجده عند الغزالي فهو يرى من علامة الأنس الخاصة ضيق الصدر من معاشرة الخلق، والتبرم بهم والاستنارة بعذوبة الذكر، فإن خالط فهو كمنفرد في جماعة ومجتمع في خلوة، وغريب في حضرة، وحاضر في سفره، وشاهد في غيبة، وغائب في حضور، مخالط بالبدن، منفرد بالقلب، مستغرق بعذوبة الذكر. كما قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في وضعهم (أي المتحققين بحال الأنس) "هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين، واستلانوا

---

(١) انظر: أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء، جـ ٩، ص ٣٨٢.

وانظر أيضًا: د. محمد مصطفى حلمي، دائرة المعارف الإسلامية، تعليق على مادة ذي النون، جـ ٤، ص ٤٢٥.

(٢) السلمي: الطبقات، ص ١٠ – أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء، جـ ٩، ص ٣٨٢.

(٣) نفس المرجع السابق.

ما استوعر المترفون وأنسوا بما توحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه"(١). فمن تحقق بحال الأنس لا يأنس إلا بالله فلا يأنس بالخلق ورأى شيخنا أن من استأنس بالخلق فهو بعيد عن الحضرة الإلهية ويقول: "من استأنس بخلق فقد استمكن من بساط الفراعنة، ومن غيب عن ملاحظة نفسه فقد استمكن من الإخلاص، وكان حظه في الأشياء هو "أي الله" لا يبالي ما فاته مما هو دونه (أي دون الله)" (٢).

فحقيقة الأنس استبشار القلب وفرحه بمطالعة الجمال حتى أنه إذا تجرد عن ملاحظة غاب عنه وما يتطرق إليه من خطر الزوال عظم نعيمه ولذته ومن هنا قيل لبعضهم أنت تشتاق فقال لا إنما الشوق إلى غائب فإذا كان الغائب حاضرا فإلى من يشتاق، وهذا كلام يستغرق في الفرح غير ملتفت إلى ما بقى في الإمكان من مزايا الألطاف(٣).

ويربط ذو النون كما هو واضح بين حال الأنس والخلوة في قوله: "الأنس بالله نور ساطع والأنس بالخلق غم واقع"(٤). فالمأتنس بالله يتمتع بأنواره أما المستأنس بالخلق فيلحقه الغم لما قد يجر عليه الأنس بهم من متاعب.

وللأنس عند شيخنا درجات أدناها أن يفقد المتحقق بحال الأنس بالله شعوره بنفسه حتى إنه إذا ألقي في النار وهو في غمرة أنسه بالله فلا يغيب اهتمامه عن مطالعة لذى الأنس بالله والاستمتاع بها فيقول في ذلك: "أدنى منازل الأنس أن يلقى في النار – أي السالك – فلا يغيب همه عن مأموله(٥). ويكون ذلك لشدة استغراقه في الله غير شاعر

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين، جـ ٤، ص ٣٣٠.

(٢) السلمي: الطبقات، ص ١٠ – محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، ل ٨٥ ظ.

(٣) السلمي: الطبقات، ص ١٢ – الغزالي: إحياء علوم الدين، جـ ٤، ص ٣٣٠.

(٤) السلمي: الطبقات، ص ١١ – الغزالي: إحياء علوم الدين، جـ ٤، ص ٣٣٠.

(٥) السلمي: الطبقات، ص ١٠.

بما يحدث له ويصيبه ويعلل علماء النفس ذلك بأن مستوى النشاط الذهني أثناء ذلك يكون أقل تماسكا وجودة من مستوى نشاط الشخص العادي الضابط لنفسه وقد يكون التأمل قويا والمخيلة متوقدة وثابتة غير أن الأفكار تكون في الوقت نفسه متسلطة ملازمة يعجز الفرد عن تحويل مجراها وتوجيهها وعن أن ينقل انتباهه إلى مجال آخر[١].

٢ - حال الفناء والاتصال:

يعتبر حال الفناء عند صوفينا هو أقصى درجات القرب من الله التي يمكن أن يحظى بها الواصل إلى الحضرة الإلهية ويحلل ذو النون حال الفناء في الله والاتصال الروحي بينه تعالى وبين الواصل إليه بقوله: "إنك إن أطعته أفادك حبه وأدناك إلى قربه، وإذا أدناك إلى قربه ثم لذذك بمناجاته أفناك بذكره، وإذ أفناك بذكره أقعدك على مرآة سره، ثم روحك وفضلك، وحكمك وأيدك ثم أوصلك بوصاله إلى موصله فاتصلت بلا وصلة، ووصلت بلا فصل، وهذا المقام العالي والمرتبة العظيمة وذاك فضل من الله يؤتيه من يشاء"[٢].

فالصوفي الذي أطاع الله وتحقق بمنازل السلوك إليه وراضي نفسه وهيأ قلبه للاتصال بالله وداوم ذكره بقلبه وروحه وصار محبوبه وموضع همه دون سواه أدناه الله إلى قربه ولذذه بمناجاته وأفناه بذكره، وجل مرآة سره وأفاض عليه من المعارف الذوقية والأنوار الإلهية واطلعه على ما لا يخطر على قلب بشر وبذلك يكون قد روحه وفضله وأيده وأوصل إلى حضرته دون وصلة أو واسطة وصالا بلا انفصال وهو أعلى الأحوال وأعز المنازل والأحوال وهو فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده المخلصين.

وإذا كان شيخنا يقول: "ووصلت بلا فصل" فإنه لا يعني أن المتحقق بحال الثناء والاتصال يظل في فنائه دائمًا بلا بقاء وإنما يعني أن من وصل إلى هذه الدرجة العظيمة

---

(١) د. يوسف مراد: مبادئ علم النفس العام، ط ٤، ص ١٢٩.

(٢) انظر: محيي الدين بن عربي، الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، معهد المخطوطات رقم ٤١٢ تاريخ.

فإنه يظل على اتصال قلبي وروحي بالله حتى بعد زوال حال الفناء ورجوعه إلى البقاء، وحقيقة الفناء أن السالك الذي يستغرقه التفكر في الله حتى يفنى عما حوله ثم يفنى عن نفسه ويسير الحق سبحانه هو المهيمن الوحيد على فكره أو كما يقول علماء النفس.. يبدأ بأن يكون العالم الخارجي على هامش شعوره، وتسيطر فكرة الله على بؤرة شعوره، ثم يستغرقه التفكر في الله فيفنى عن العالم من حوله ثم يفنى عن نفسه وتكف جميع الأفكار المناهضة لفكرة الله، حتى تسيطر وحدها على كل مشاعره، فيقال إنه فنى عما حوله وفنى عن نفسه وبقى بالله. ويقول ذو النون: "من غيب عن ملاحظة نفسه فقد استمكن من الإخلاص"[(١)]. أي إخلاص سره وقلبه لله تعالى وحده، والفاني في الله يتلقى المعرفة النورانية من لدنه تعالى في لحظة فنائه وهذا ما سيتضح لنا عند الحديث عن المعرفة عند شيخنا.

---

(١) الرسالة القشيرية: ص ٣٦.

المعرفة
عند ذي النون المصري

١ - تمهيد:

اتضح لنا فيما سبق كيف ينجح السالك في تطويع نفسه الأمارة بالسوء لنفسه المطمئنة عن طريق المجاهدات والرياضات العملية المختلفة وتخلية نفسه من الأخلاق الذميمة وتحليتها بالأخلاق الكريمة عن طريق التحقق بالمقامات والأحوال الصوفية حتى تصفو وتتطهر ويصير أهلا لتقبل المعرفة الذوقية القلبية عن الله سبحانه في حال الاتصال الروحي بين السالك الذي تحقق بالكمال الأخلاقي وبين الله ويقول ذو النون: "مكاشفات القلوب بالاتصال ومكاشفات النفوس بالأبعاد"[(١)].

ونجد لدى ذو النون نظرية في المعرفة الإشراقية قد تطورت بعد ذلك على يد من جاء بعده من الصوفية ويقول الأستاذ المرحوم الدكتور محمد مصطفى حلمي: "إذا انتقلنا إلى الناحية التيوزوفية الخاصة لهذا المذهب – أي مذهب ذي النون – الفينا له نظرية في المعرفة وأخرى في المحبة وكلتاهما تنطويان على كثير من المعاني الفلسفية التي ظهر لأول مرة في تاريخ التصوف الإسلامي عند ذي النون وكان ظهورها عنده في صورة ساذجة بسيطة ثم أخذت هذه الصورة تدق وتتضح رويدا رويدا على أيدي من تعاقب بعده من الصوفية بصفة عامة، حتى تهيأ لها من الدقة والوضوح والتمام أكبر حدة عند الصوفية المتفلسفين، أو الصوفية الذين وقع التزاوج في مذاهبهم بين التصوف والفلسفة الإلهية وعلم الكتاب من أمثال محيي الدين بن عربي، وعمر بن الفارض، ويحيى السهروردي المقتول، بصفة خاصة[(٢)]، وأود أن أكرر هنا أن تصوف ذي النون عامة ونظرية في المعرفة بوجه خاص تخلو من القول بالاتحاد أو غيرها من النظرات

---

(١) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية ١٤٢ تاريخ.

(٢) انظر: مقال د. محمد مصطفى حلمي، بدائرة المعارف الإسلامية، تعليق على مادة ذي النون، جـ ٤، ص ٤٢٧.

والشطحات. التي تخالف في ظاهرها على الأقل ما جاء بالكتاب والسنة فهو كما سنرى في حديثه المعرفة الذوقية كان ملتزما في كل أقواله.

٢ - الوصول إلى الله:

ويحدثنا شيخنا عن السالك الذي وصل إلى أعلى الدرجات وتجاوز أجل الطريق ثم له الوصال والاتصال، فيتجلى له الله في قلبه حال فناءه عن نفسه يقول: "إن المريد إذا صدق سعيه بينه وبين الله تجلى في سره"(١). ويتحقق الواصل إلى الله بالمعرفة الذوقية في حال الفناء وهي أعلى درجات الطريق الصوفي لا يصل إليها إلا الكمل حتى أخلصوا لله وتجردوا في سلوكهم الطريق إليه وفنوا أنفسهم في التعرب إليه وتهيأت قلوبهم وخلت نفوسهم وشحذت هممهم فأنهم الله عليهم بنعمة الوصال وكشف الله بصيرتهم وجلى قلوبهم فأشرقت عليها أنوار المعرفة الذوقية. يقول ذي النون عن العارفين: "عبروا نور الهوى حتى نزلوا بفناء العلم، وشربوا من غدير الحكمة وركبوا سفينة الفطنة واقلعوا تاج النجاة في بحر السلامة حتى وصلوا إلى رياض الراحة ومعدن العزة والكرامة(٢).

وفي العارفين على حد تعبيره قد وصلوا إلى رياض الراحة فقد ربط ذو النون بين معرفة الله وبين سعادة العارف ويتضح ذلك من قوله: "العارف ينقلب في ليلة ونهاره في أربع روضات في الوحدة، وسرور المعرفة – وحلاوة الخدمة وخوف الفرقة"(٣). فالعارف بالله يأنس به الخالي ويسر ويسعد لمعرفته، ويجد حلاوة في التعبد له وطاعته ويخشى الانفصال بعد الاتصال.

---

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) انظر: محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية ٤٢١ تاريخ.
وانظر أيضًا: الغزالي، مكاشفات القلوب، ص ٦٠.

(٣) انظر: محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية ٤٢١ تاريخ.

ويذهب ذو النون إلى أن العارف يزداد خشوعًا كل يوم لأن كل ساعة تمر عليه تقربه إلى ربه أكثر ويقول: "العارف كل يوم أخشع لأنه كل ساعة أقرب"[١]. ويرى أن العارف لا تلزمه حالة الوحدة وإنما عليه أن يلزم ربه في جميع الحالات فهو ينصف على الدوام بمعرفة ربه معرفة يقينية لا يساوره فيها أدنى شك ويقول: "أن العارف لا يلزمه حالة واحدة وإنما يلزم ربه في الحالات كلها"[٢].

وعلامة العارف عند شيخنا ثلاثة هي: "ألا يطفئ نور معرفته نور ورعه، وألا يعتقد باطلا من العلم ينقض عليه ظاهرا من الحكم، وألا تحمله كثرة نعم الله عز وجل على هتك أستار محارم الله"[٣].

وهذا النص يوضح أن صوفينا يحرص دائمًا على التمسك بظاهر الشرع في العمل والاعتقاد، واواصل إلى مقام المعرفة يصير صوفيًا كاملاً عارفًا بالله يتصف بالأخلاق الربانية ويكون حسن العشرة قوي الاحتمال شديد الصبر في معاملته مع الآخرين ويقول: "معاشرة العارف كمعاشرة الله تعالى يحتملك ويحلم عنك تخلقا بأخلاق الله"[٤]. ويقول أيضًا: "أدب العارف فوق كل أدب لأن معروفه مؤدب قلبه" أي أن الواصل إلى معرفة الله يكون أكثر الناس أدبا، لأن ما فاض على قلبه من المعارف النورانية أدب قلبه وجمله بالكمال الأخلاقي.

---

(١) المرجع السابق. وانظر: السلمي، طبقات الصوفية، ص ١١.

(٢) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، ل ١٢٧.

(٣) نفس المرجع السابق.

(٤) الرسالة القشيرية: جـ ٢، ص ٦٠٩.

٣ - حد المعرفة وموضوعها:

يحد ذو النون المعرفة بقوله: "النظر في الأمور كيف دبرها، وفي المقادير كيف قدرها، وفي الخلائق كيف خلقها"(١).

وموضوع المعرفة الصوفية عند شيخنا هو معرفة الله تعالى – معرفة ذاته وصفاته وأسمائه وهي معرفة لا تتثنى لأحد إلا بعد طريق طويل من المجاهدة والرياضة كما هو واضح فيما سبق، ويوضح ذو النون أن معرفة الله معرفة ذوقية قلبية لا تعني معرفته تعالى معرفة إحاطة فتلك معرفة ليست ممكنة لأحد من البشر فإنه سبحانه فوق كل إحاطة ويقول: " اعرف الناس بالله أشدهم تحيرًا فيه "(٢).

٤ - أدوات المعرفة ومناهجها:

تختلف أدوات المعرفة ومناهجها عند ذي النون باختلاف درجة العارفين ونوع المعرفة، فالمعرفة عنده على ضروب ثلاثة: معرفة عامة المسلمين في معرفة التوحيد، ومعرفة المتكلمين والحكماء الذين يستندون إلى الحجة والبيان والبلاغة، ومعرفة خواص الأولياء المقربين الذين يعرفون الله معرفة يقينية قلبية لا يتطرق إليها أدنى شك: ويقول: "معرفة الله على ثلاثة أوجه: معرفة التوحيد وهي لعامة المؤمنين والثانية معرفة الحجة والبيان وهي للعلماء والحكماء والبلغاء، والثالثة: معرفة صفات الوحدانية والفردانية وهي لأولياء الله وأصفيائه"(٣).

وعلى ذلك فإن للمعرفة بالله عند صوفينا درجات ثلاثة ومناهج ثلاثة أدناها معرفة العوام وهي تستند على الخبر المنزل والتوحيد دون استدلال أو طلب حجة. أوسطها مرتبة معرفة الحكماء والفلاسفة وهي أرقى من معرفة العوام وتستند على منهج الاستدلال والبرهان العقلي بالنظر في المخلوقات والاستدلال منها على معرفة الخالق، أو الاستدلال من وجود الصنعة على وجود الصانع وهي أدنى من المعرفة الثالثة وهي

---

(١) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء، جـ ٩، ص ٣٣٩.

(٢) الرسالة القشيرية: جـ ٢، ص ٦٠٥.

(٣) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء، جـ ٩، ص ٣٥٣.

معرفة الخاصة من المؤمنين وهي أرقى أنواع المعرفة وتستند على منهج الشهود الذوقي والمعرفة من النوع الثالث لا يحتاج العارف للتحقق بها إلى واسطة من حس أو عقل وإنما هي تشرق في قلبه من لدن الله تعالى في حال الفناء فهي إدراك ذوقي مباشر وهي أكثر أنواع المعرفة يقينًا. يقول ذو النون في أداة المعرفة القلبية الذوقية عندما سئل بالمال عرف العارفون ربهم فقال ما نصه: "إن كان بشيء فقطع الطمع، والإشراف منهم على اليأس مع التمسك منهم بالأحوال التي أقامهم عليها، وبذل المجهود من أنفسهم، ثم أنهم وصلوا بعد إلى الله بالله[١].

والحق أن صوفينا يفرق في معرفة الله بين السالك الذي ينتهي به الطريق الطويل الذي سلكه بالمجاهدات والرياضات والتحقق بالمقامات والأحوال حتى أن يصل إلى معرفة الله معرفة قلبية الهامية من لدنه تعالى، وبين المجتبي أو المجذوب الذي يصطفيه الله دون مجاهدة ودون السير في الطريق الصوفي، فيقذف في قلبه بنور المعرفة فيطلعه الله تعالى على ذاته دون كسب منه أو اجتهاد. ولذا عندما أجاب عن كيفية معرفة الله قال "إذا كان بشيء فبقطع الطمع... الخ". فهذا يدل على أن معرفة الله يمكن التحقق بها دون شيء أو دون اجتهاد أو مجاهدة. كما حدث له هو شخصيا. ولذلك قال: "ثم أنهم وصلوا بعد إلى الله بالله ". وعندما سئل كيف عرفت ربك؟ فقال: "عرفت بربي ولولا ربي ما عرفت ربي"[٢]. وقد أشرت في أول البحث عن سبب توبته وكيف اصطفاه الله واطلعه على وجده ثم بعد ذلك تلك الطريق الصوفي.

وقد كان لابن عطاء الله السكندري الصوفي المصري حديثا طويل عن السالكين والمجذوبين، وسمى طريق المجذوبين بطريق التدلي وطريق السالكين بطريق الترقي[٣].

وحديث ذو النون عن أنواع المعرفة ومناهجها وأدواتها يشبه ما نجده عن الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين حيث قال: "أن الإيمان والمعرفة ثلاثة مراتب: المرتبة الأولى

---

(١) المرجع السابق وانظر أيضًا: الرسالة القشيرية: جـ ٢، ص ١٤٢.

(٢) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء، جـ ٩، ص ٣٥٣.

(٣) د. أبو الوفا الغنيمي التفتازاني – ابن عطاء الله السكندري وتصوفه، ط ٢، ص ٢٧٨ – ٢٨٤.

إيمان العوام وهو إيمان التقليد المحض والثانية إيمان المتكلمين والفلاسفة وهو ممزوج بنوع استدلال ودرجته قريبة من درجة إيمان العوام. والثالثة إيمان العارفين وهو المشاهدة بنور اليقين"[١].

كذلك ربط ذو النون بين المعرفة والراحة النفسية للعارف وسروره وسعادته وهو يشبه ما نجده عند الغزالي الذي جاء بعده بنظرية متكاملة في السعادة الناجمة عن معرفة الله فربط بين معرفة الله وبين سعادة الإنسان الحقة، وهو يرى أنه كلما كانت درجة المؤمن في معرفة الله أعلى كلما شعر بسعادة أعمق[٢].

كما ربط المعرفة بالتوحيد فيرى أن قدرة الله في الأشياء بلا مزاج وأنه ليس في السموات العلى ولا في الأرضين السفلى مدبر غير الله"[٣]. وهو كان ليقين معرفته بالله يرى أن الله في كل شيء ويسمعه في كل صوت فهو يقول: "اللهي ما أصغى إلى صوت حيوان، ولا حفيف شجر ولا خرير ماء ولا ترنم طائر، ولا تنعم ظل، ولا دوي ريح، ولا قعقعة رعد، إلا وجدتها شاهدة بوحدانيتك دالة على أنه ليس كمثلك شيء... إلهي لا تترك بيني وبين أقصى مرادك حجابا إلا هتكته، ولا بابا إلا فتحته. حتى تقيم قلبي بين ضياء معرفتك وتذيقني طعم محبتك، وتبرد بالرضا منك فؤادي وجميع أحوالي حتى لا اختار غير ما تختار، وتجعل لي مقاما بين مقامات أهل ولاياتك ومضربا فسيحا في ميدان طاعتك"[٤].

وهكذا نجد عند شيخنا نظرية متكاملة في المعرفة لم يكن لها نظير عند من سبقه من أهل الطريق، ويقول في ذلك الأستاذ الدكتور أبو الوفا التفتازاني: "وواضح أن هذه الأفكار المتعلقة بنظرية المعرفة ليس فيها بساطة تفكير الزهاد في القرنين الأول والثاني وهي تمثل اتجاه التصوف إلى منهج أكثر دقة وعمقا، وإن شئت قلت هي تحول واضح

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين، جـ ٣، ص ١٧.

(٢) نفس المرجع السابق.

(٣) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء، جـ ٩، ص ٢٢٦.

(٤) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، ل ١٤٥.

من الزهد إلى التصوف من حيث قوة فلسفة ابستمولوجية ذلك أن تقسيم ذو النون للمعرفة يتضمن القول بثلاث مناهج للمعرفة فهناك منهج النقل الذي يدرك العوام بواسطته التوحيد. ومنهج العقل الذي يعتمد عليه الحكماء والفلاسفة ومن نحى نحوهم وهو الاستدلال ومنهج الذوق المباشر وهو منهج الأولياء والصوفية"[1].

ولا شك أن نظرية ذي النون في المعرفة قد تأثر بها الصوفية اللاحقون عليه كما هو واضح عند الغزالي وغيره من أهل الطريق.

(١) د. أبو الوفا الغنيمي التفتازاني: مدخل إلى التصوف الإسلامي، ط ٢، ص ٩٤.

الخاتمة

اتضح لنا من هذا البحث النتائج التالية:

١- إن للصوفي المصري " ذو النون " من أبرز صوفية القرن الثالث الهجري، مارس التصوف عملا، كما كان له مذهبه النظري في التصوف، وهو من الرواد الأوائل الذين ادخلوا على معاني الزهد التي كانت سائدة بين زهاد القرنين الأول والثاني للهجرة معاني جديدة تحول على أثرها الزهد إلى تصوف أو تحولت بعدها الحياة الروحية في الإسلام من حياة ذات طابع عملي أخلاقي إلى مذهب نظري يرسم الطريق الصوفي أمام السالكين.

٢- أن مذهب ذو النون الصوفي لا يخلوا من الأنظار الفلسفية غير أنه يخلو تماما من الشطحات والعبارات والنظريات الخارجة عن ظاهر الشرع، فتصوفه تصوف سني ملتزم بالكتاب والسنة.

٣- إنه كان في حياته متهم بالزندقة من جانب بعض الفقهاء غير أنه صبر على موقفهم منه وقد ظهرت ولايته في حياته وعند وفاته.

٤- كان له مصنفات في العلوم كالطب والكيمياء وغيرها وفي العلوم النظرية كعلم الكلام والأدب والتصوف والحديث.

٥- أن مصنفاته منتشرة في مكتبات العالم وفي حاجة إلى من يجمعها ويحققها ويخرجها إلى النور.

٦- كان من أوائل من تكلموا في المقامات والأحوال الصوفية بشكل واضح مفصل ورسم الطريق الصوفي لسالكين ابتداء من مجاهدة النفس بالرياضات العملية والروحية للوصول إلى المعرفة الذوقية التي هي غاية الطريق الصوفي فكان له نظرية في المعرفة ونظرية في المحبة.

٧- أن مذهبه الصوفي يحمل عناصر نظرية لها قيمتها الفلسفية وعناصر عملية لها قيمتها الأخلاقية والتربوية وهو يذكر متفرقا في كتب التراجم والطبقات وعلى الباحث أن يستجمع شتات مذهبه من تلك المراجع ويؤلف بينها.

٨- اتسم عصره بازدهار العلوم والمعارف على اختلاف موضوعاتها وكان لذلك أثره الواضح على فكره وثقافته فكان عصره حافلا بأرباب العلم من الفقهاء والمحدثين والصوفية الذين أخذ عنهم.

٩- كان له مصنفات في الحديث وكان عالمًا به وراويًا له وإن كان لم يشتغل به إلى الحد الذي يجعله في عداد المحدثين وقد بلغ احترامه للحديث بأن قال أن للحديث رجالا وبناء على ذلك لم يعتبر نفسه من المحدثين رغم ما له فيه من مصنفات.

١٠- تأثر ذو النون بأصحاب الطرق الذين سبقوه والذين عاصروه كما كان لتأثيره الكبير فيمن عاصره منهم وفيمن جاء بعده.

فهرس

تمهيد: ٥

سيرته ومصنفاته ١٢

اسمه: ١٢

لقبه: ١٢

كنيته: ١٢

تاريخ مولده: ١٢

بيئته الخاصة: ١٣

مكانته وعصره وثقافته: ١٨

عصره: ١٩

وفاته وقبره: ٢٠

ما كُتِبَ حديثًا عن ذي النون: ٢١

مصنفات ذي النون ٢٢

أولاً: مصنفاته في العلوم العملية ٢٤

ثانيًا: مؤلفاته في التصوف والأخلاق الدينية والحديث ٢٦

مذهب ذي النون الصوفي ٢٨

مجاهدة النفس: ٣٠

أولاً : العزلة: ٣٨

ثانيًا : الخلوة: ٣٩

ثالثًا : الذكر: ٤٠

رابعًا : السماع: ٤٢

خامسًا : الصمت: ٤٤
سادسًا : الحج: ٤٤
المقامات والأحوال عند ذي النون المصري ٤٦
مقام التوبة: ٤٨
مقام الصدق: ٥٠
مقام الإخلاص: ٥١
مقام الصبر: ٥٣
مقام التفكر والتأمل: ٥٤
مقام اليقين: ٥٥
مقام الخوف والرجاء: ٥٧
مقام العبودية: ٥٩
مقام الحياء: ٦١
مقام الزهد: ٦٣
مقام المحبة والعشق: ٦٥
مقام التواضع: ٦٩
مقام التوكل: ٧١
مقام المحاسبة والمراقبة: ٧٢
الأحوال: ٧٤
حال الأنس: ٧٤
حال الفناء والاتصال: ٧٦
المعرفة عند ذي النون المصري ٧٨

تمهيد: ٧٨
الوصول إلى الله: ٧٩
حد المعرفة وموضوعها: ٨١
أدوات المعرفة ومناهجها: ٨١
الخاتمة ٨٥
الفهرس ٨٧

تم بحمد الله